

فواصل الآيات القرآنية

د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

(الطبعة الأولى)

١٩٩٩ - ١٤٢٠

المكتب الجامعى الحديث

١٤ ض ديتوقراط - الأزارطة - اسكندرية

تليفاكس : ٤٨٤٣٨٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا »

ثم الصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد ، فإن من أجل أنواع علوم القرآن التى تستحق منا الدراسة والبحث ذلك النوع الذى يتعلق بالفواصل القرآنية وقد ذكره الإمام السيوطى (ت ٩١١) فى كتاب « الإثقان فى علوم القرآن » ، فى النوع التاسع والخمسين تحت عنوان (فى فواصل الآى) تناول فيه الكلام عن أقوال العلماء فى هذا الشأن فى إيجاز لا يشبع نهم الباحثين ، ولذلك رأينا أن نفرد بالتصنيف فى موضوعه هذا البحث لأجل أن نقدمه للناس فى صورة مبسطة ، خصوصا أن الدراسات الحديثة لم تقف عند هذا الموضوع طويلا ، وإنما هى إشارات سريعة فى سطور قليلة لاتشبع رغبة الباحث المتتبع لظاهرة الفواصل .

وتحقيقا للوصول إلى الفائدة من أوجز سبيل ، عمد البحث إلى التقليل من نقل النصوص التى يتم الاستشهاد بها ، بعدا عن الحشو والإسهاب ، فجاءت الدراسة محددة فى أربعة فصول يبانها كما يلى :

الفصل الأول بعنوان: « بين الفواصل والقسوافي والأسجاع » ، تم فيه التعريف بالفاصلة وإبراز الفرق بينها وبين القافية والسجعة ، وتبين أنه لا يجوز تسمية الفاصلة قافية إجماعاً لأن الله عز وجل لما سلب عن القرآن صفة الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه ، فأما مناسبة الفواصل فلقوله تعالى : **﴿ كتاب فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾** (فصلت ٣) .

ولما كان القرآن منزهاً عن مقالة الشعر فقد تشابهت فواصل الآيات مع السجع ، ونجم خلاف بين العلماء من حيث جواز إطلاقه على ما في القرآن من فواصل وعدم جواز ذلك وصارت قضية .

وبعد المقارنة بين كلام الفريقين من العلماء : فريق المنكرين وفريق المميزين تم حسم الخلاف بجواز إطلاق السجع على الفواصل ، لا سيما أن القرآن نزل على أساليب الفصح من كلام العرب ، والسجع نمط من أنماط النثر الفني عندهم ، ولأنه لم يرد نص شرعي صريح يمنع من تسمية الفواصل بالأسجاع ، فالقول بالسجع في القرآن تقرير للفاصلة ، والقول بالفاصلة ليس انكاراً للسجع في حقيقة الأمر .

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان : « الإعجاز البلاغي للفواصل القرآنية » ، وفيه تم التركيز على إظهار بلاغة الفواصل القرآنية ومناسبتها لآياتها حتى ظهر التناسب الرائع بينها وبين الألفاظ والسياق ، وحتى عد ذلك من ضروب الإعجاز البلاغي في القرآن ، ولأجل أن توضح هذا المعنى كشفنا عن بعض أسرار

هذا التناسب تحت عناوين تُفصّله وهي : المزاجية بين الفواصل ، وتناسب الفاصلة ، والتمهيد للفواصل بألفاظ تمهد لوقوعها ، وتكرير الفواصل في بعض السور ، والربط الفني في الفواصل ثم رعاية الفواصل ، وأخيراً تحقيق التناغم بين الفواصل بحسب الإيقاع الملائم .

أما الفصل الثالث وهو بعنوان : « الدرس البلاغي للفواصل القرآنية » ، فقد عالج الدرس البلاغي لهذه الفواصل ، ومراده تبیین المنهج العلمی فی دراسة هذه الظاهرة باعتبارها وجهها من وجوه الإعجاز ، وكيف نتناولها عند إرادة التدريس ، وتحقيقاً لهذا الغرض تم تقسيم الدرس إلى ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : وهو الدرس اللغوي الذي يعالج المناسبة النحوية والصرفية والشكل الإملائي .

والمستوى الثاني : وهو الدرس الدلالي الذي يعالج دلالة الفاصلة في السياق .

ثم المستوى الثالث : وهو الدرس البديعي : باعتبار أن تقسيم الفواصل من حيث الحلية اللفظية في علاقاتها الأربع وهي التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال وجميعها تدرج في قسم البديع ، لاتأني مجرد تحسين الكلام بل إنّ هناك اعتباراً للمعنى يجب ألا نغفله في هذا التقسيم .

وقد ضم هذا الفصل أقوال كثير من علماء البلاغة والباحثين في مضمارها مع ذكر العديد من الأمثلة التي تصلح للدرس ، ومناقشة بعض الآراء لدى أصحابها .

وأخيرا يأتي الفصل الرابع ختام المسك في هذا البحث وهو بعنوان : «معارضة الفواصل والقول بالصرفة» ، تم فيه الكلام عن تحدى القرآن للعرب أن يأتوا بمثله ، وبيان الفشل الذريع في معارضته وذكر أسماء من اشتهروا بمعارضة القرآن في فواصله الممتنعة ، ثم طرح قضية القول بالصرفة ودحض هذه الشبهة التي تقول بأن العرب كان في مقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك ، ثم بيان أن القرآن معجزة خالدة أبد الدهر ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي نهاية البحث تأتي الخاتمة لتعرض أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، تليها قائمة المصادر والمراجع التي تهيأ لي الاستعانة بها والإفادة منها .

ولست أدعى أنني في ذلك بلغت مالم يبلغه غيري ، أو أنني لم أدع زيادةً لمستزيد ، والكمال وحده لله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

والله الموفق ،،،

تحريرا في الأول من رمضان ١٤١٩هـ

الباحث

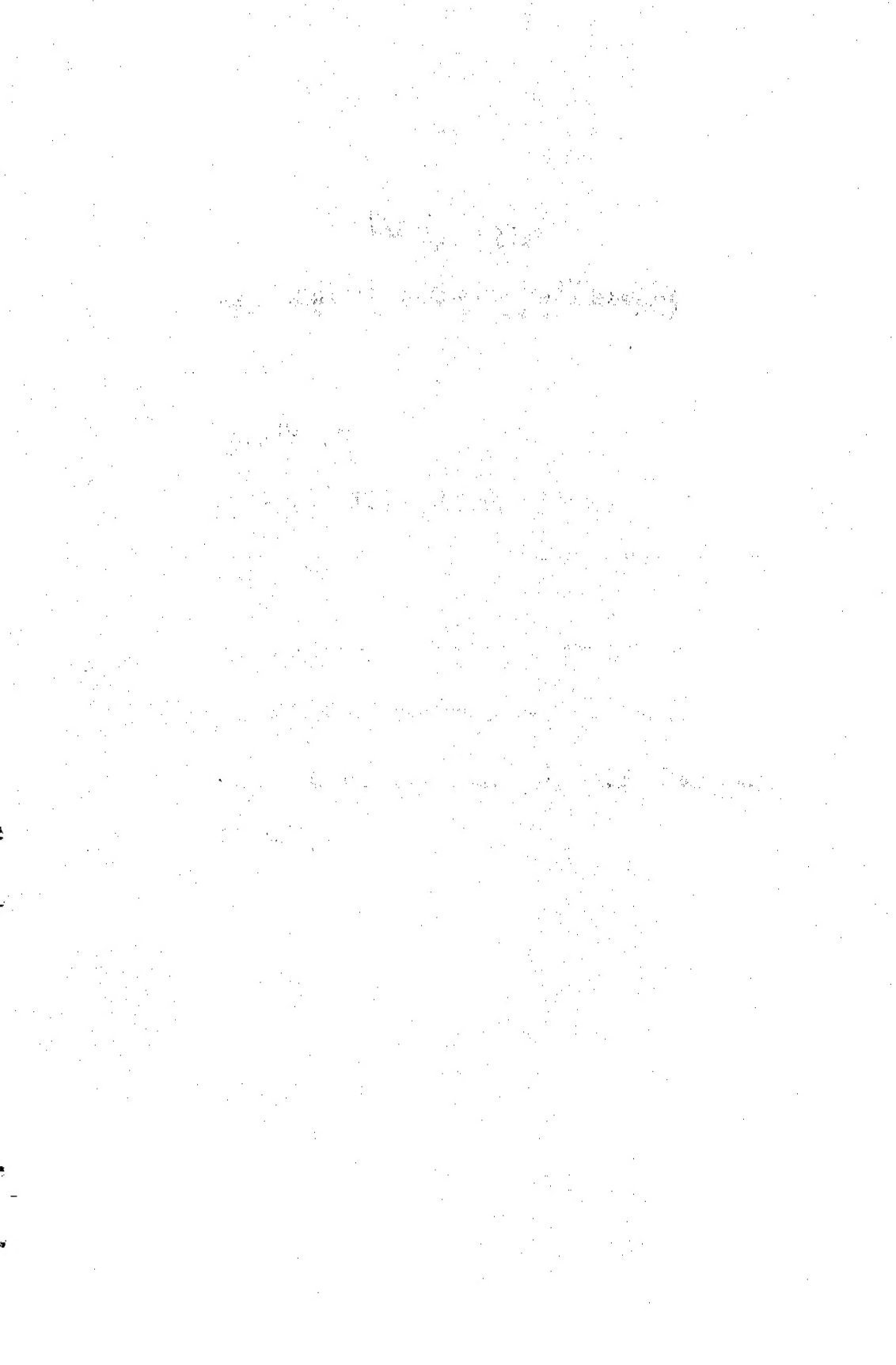
الموافق ٢٠ ديسمبر ١٩٩٨م

الفصل الأول

بين الفواصل والقوافي والأسجاع

وفيه :

- تعريف الفاصلة .
- بين الفاصلة والقافية والسجعة .
- سجع الكهان
- هل يجوز إطلاق السجع على الفواصل ؟
- السجع نمط من أنماط النثر الفني عند العرب .
- حسم الخلاف بين العلماء في وصف الفواصل
بالأسجاع .



« بين الفاصلة والقافية والسجعة »

تعريف الفاصلة :

ما الفاصلة ؟ ... الفاصلة هي آخر كلمة في الآية كقافية الشعر وقرينة السجع (١) .

وفرق الإمام أبو عمرو الداني (٢) بين الفواصل ورءوس الآي ، فقال : أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل عما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس أي وغيرها وكل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين .

وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ولم يسموها أسجعا .

فأما مناسبة فواصل ، فلقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته » . سورة فصلت « ٣ » .

« ومنذ بدأ عصر التأليف في الدراسات القرآنية والبلاغية ، أخذت قضية الفواصل موضعها من عناية الأجيال الأولى من علماء العربية وإن

١ - السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ج ٣ ص ٣٣٢ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق « محمد أبو الفضل إبراهيم » ، سنة ١٩٧٤ .

٢ - هو الإمام عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني أحد أئمة القراءات ، وصاحب كتاب التيسير ، والمقنع ، والاكتفاء ، وغيرها من الكتب التي تتعلق بالقراءات توفي سنة ٤٤٤ هـ .

لم تستقل بمباحث مفردة بل جاءت عارضة في ثنايا المصنفات القرآنية المبكرة : (١)

« فأبو عبيدة ، معمر بن المثنى البصرى (٣١٠ هـ) يقف بين حين وآخر في كتابه (مجاز القرآن) عند الفاصلة إذا لحظ فيها عدولا عن مألوف الاستعمال اللغوى ، موجهاً همه إلى الاحتجاج لهذا العدول بأن « العرب تفعل ذلك في كلامها » وهى العبارة التى تلقانا كثيراً فى كتاب مجاز القرآن .

كذلك لم يعرض « الفراء أبو زكريا الكوفى » (٢٠٧ هـ) لمسألة الفواصل عرضاً مباشراً فى كتابه (معانى القرآن) ولكنه فى توجيه الآيات ، وترجيحه بين القراءات ، يصرح بأن القرآن يراعى الفاصلة : فيقدم أو يؤخر أو يحذف ، ويؤثر لفظاً على آخر فى معناه ، أو يعدل عن صيغة للكلمة إلى صيغة أخرى ، رعاية « لمشكلة المقاطع ورعوس الآيات ، وكأنه نزل على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع » . (٢)

وعلى كثرة ما عرض « الفراء » للفواصل القرآنية وبخاصة فى السور المكية ، لم يذكرها باسم الفواصل وإنما هى عنده رعوس آيات . وقد تخشى القول « بالسجع » فيها ، وإن ثبت على مذهبه فى أن النظم القرآنى يراها قصداً إلى الجرس الصوتى ومشكلة المقاطع .

وحتى القرن الثالث للهجرة ، كان التحرج واضحاً من القول بالسجع فى القرآن ، وكأنما كان الحس المؤمن ينبو عن هذه الكلمة ، لكثرة ما

١ - د / عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن ، ص ٢٥٣ طبعة دار المعارف - القاهرة .
٢ - أقرأ من ذلك مثلاً ، توجيه الفراء لفواصل آيات : المراتل ٣٢ ، الفجر ٤ ، الإنسان ١٨ ، النازية ١١ ، الضحى ٣ . فى (معانى القرآن) ط دار الكتب ١٩٥٥ ط القاهرة .

أطلقت عن قديم على سجع الكهان » . (١)

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠) هو أول من استعمل مصطلح الفواصل في أواخر آيات القرآن الكريم ، وأن أبا الحسن الأشعري هو أول من نزه القرآن الكريم عن السجع (٢) .

« والقرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً ، إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعراً ، وهذا واضح ، فهو لم يتقيد بقيود الشعر . وليس نثراً ، لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره . وهى هذه القيود التى يتصل بعضها بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة . فهو ليس شعراً ولا نثراً ، (٣) ولكنه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هود ١ .

تعريف القافية :

علمنا أن الفاصلة هى آخر كلمة فى الآية وتجمع على فواصل وهى حروف متشاكله فى المقاطع كما فى قوله تعالى « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها » فالكلمات زلزالها - أثقالها - مالها - فواصل للآيات وهى أيضا رؤوس الآيات . ونلاحظ أنها اشتركت جميعا فى اتفاق الحروف الأخيرة منها

١ - انظر د/ عائشة عبد الرحمن ، الاعجاز البيانى للقرآن ومسائل بن الأرق ، دراسة قرآنية لغوية وبيانية ص ٣٥٤ - طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٨٧ .

٢ - محمد رجاء حنفى عبد المتجلى ، مقال بعنوان (الفواصل أحد مظاهر الاعجاز فى القرآن الكريم ، مجلة الوعي الإسلامى ، المجلد ٣٨٨ (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) ص ٤٤ .

٣ - طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، ص ٢٥ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٥ .

فى اللام والهاء والألف الممدودة .

وفاصلة الآية كقريئة السجعة فى النثر ، وقافية البيت فى الشعر^(١) . وإنما سميت الفاصلة لأن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ، ولا يجوز تسمية رءوس الآيات قوافى إجماعاً (٢) .

أما القافية فى الشعر فهى الحروف التى تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين فى آخر البيت الشعرى ، ومن ثم تكون القافية كلمة كما فى قول الشاعر :

ففاضت دموع العين منى صباة
على النحر حتى بل دمعى محملى

فالقافية هى (محملى) وهى كلمة .

وقد تكون القافية بعض كلمة كما فى قول الشاعر :

يا هلالاً قد تجلى

فى ثياب من حرير

فالقافية هى (رير) وهى بعض كلمة .

وقد تكون القافية كلمة وبعض كلمة كما فى قول الشاعر :

لو كنت أملك طرفى ما نظرت به

من بعد فرقتكم يوماً إلى أحد

فالقافية هى (لى أحد) وهى كلمة وبعض أخرى .

١ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٣ / ٣٣٣ .

٢ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٣ / ٣٣٤ .

وقد تكون القافية كلمتين كما فى قول الشاعر :

أبشر بخير عاجل
تنسى به ما قد مضى
فالقافية هى (قد مضى) وهى كلمتان (١).

وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحلو والإشباع والتوجيه
فليس يعيب فى الفاصلة أو السجعة ، حيث لا ينطبق عليهما ما ينطبق
على القافية فى الشعر (٢).

كما لا يجوز تسمية الفاصلة قافية إجماعاً ، لأن الله تعالى لما سلب
عن القرآن اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه ، وخاصة
فى الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال
الفاصلة فى الشعر ؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه (٣).

تعريف السجعة :

أما الأسجوعة أو السجعة فتكون فى السجع ؛ كما جاء فى قول
سطيح الكاهن لربيعة ابن نصر ملك اليمن فى تفسير رؤياه : رأيت
حِمْمَةً ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض نهمه فأكلت منها كل
ذات جمجمة (٤) .

فالكلمات : حممة ، وظلمة ونهمه وجمجمة كل منها أسجوعة .

١ - د/ زهران محمد جبر ، عروض الشعر الخليلى الجزء الثانى ص ٤٦ ، ٤٧ - الناشر المكتبة
الأزهرية للتراث - القاهرة .

٢ - الاتفاق فى علوم القرآن للسيوطى ٣ / ٣٢٣ .

٣ - راجع ، الاتفاق فى علوم القرآن للإمام السيوطى ج ٣ / ٣٢٤ .

٤ - ابن هشام الانصارى ، السيرة النبوية ، بتحقيق محمد يونس الجزء الأول ص ١٦ . مكتبة
الايمان - المنصورة - الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

فالسجع على هذا هو : تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر (١) .

ولما كان القرآن منزها عن مقالة الشعر، فقد تشابهت معظم فواصل الآيات مع السجع، ونجم خلاف بين العلماء من حيث جواز إطلاقه على ما في القرآن من فواصل وعدم جواز ذلك وصارت قضية « ما لبثت أن دخلت معترك الجدل الكلامي بين الفرق الإسلامية فارتبطت بقضية الإعجاز بالنظم » وبدأت تستقل بمباحث منفردة (٢) .

سجع الكهان *

« كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطَّلَع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يُلْقَى إليها توابعها من الجن ، وكان واحداً يسمى كاهناً كما يسمى تابعه الذي يوحى إليه باسم « الرئي » . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم في كل مشونهم ، وقد يتخذونهم حكماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي ، وقد نَفَرَ هاشمٌ على أمّية . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من مشونهم ، ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة ، وما يلاحظ أنهم كانوا

١ - انتهتوى، كشف اصطلاحات الفنون ج ٤ / ص ٥ بتحقيق د. لطفي عبد البديع وترجمة د.

عبد النعيم محمد حنين - طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧ .

٢ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٥٤ .

* انظر كتاب تاريخ الأدب العربي للدكتور / شوقي ضيف (العصر الجاهلي) من ص ٤٢٠ إلى ص ٤٢٣ .

يكثرون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم .

ومعنى ذلك أنه وجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز : ﴿ فلذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ﴾ الطور آية ٢٩ - وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا مائذ كرون ﴾ الحاقة ٤٢ .

وهذا السجع الديني كان يقابله سجع آخر في خطابتهم ، بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم . ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عتوا بشعرهم كما عتوا بشعرهم، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صورية وتصورية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء . (١)

هل يجوز إطلاق السجع على الفواصل :

رأى فريق من العلماء والباحثين عدم جواز إطلاق صفة السجع على الفواصل التي هي رؤوس الآيات، وحجتهم في ذلك أن السجع شيء يقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه ، أما الفواصل فهي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها ، ثم إن السجع أصله من سجع

١ - د/ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي - ص ٤٢٣ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ .

الطائر وشرف القرآن عن أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر ، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في آحاد الناس ، ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها ، وإن صح المعنى .

قال الرماني في إعجاز القرآن : ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقال في القرآن سجع ، وفرقوا بأن المسجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحال المعنى إليه ، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها . قال : ولذلك كانت الفواصل بلاغة ، والسجع عيباً وتبعه على ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني ، ونقله عن نص أبي الحسن الأشعري (١) .

قال الشيخ الإمام علي بن عيسى الرماني (٢٩٦ - ٣٨٦ هـ) في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) ما نصه :

الفواصل حروف متشكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها . وهو قلب ما توجه الحكمة في الدلالة ، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشكلة واصله إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجه الحكمة - ومثله مثل من وضع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً ،

١ - السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ج ٢ / ٣٣٥ ، وانظر أيضاً كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، بتحقيق أ. د / محمد زغلول سلام ، طبعة دار المعارف وفيه الرسالة الثانية بعنوان النكت في إعجاز القرآن للشيخ الإمام أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦ / ٣٨٦) .

أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً وقبح ذلك وعيبه يبين لمن له أدنى فهم، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : والأرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء، لقد نقر المجد إلى العشاء . ومنه ما حكى عن مسيلمة الكذاب : يا ضفدع نقى كم تنقى ، لا الماء تكدرين ولا النهر تفارقين . (١)

فهذا أغث كلام يكون ، وأسخفه ، وقد بينّا علته ، وهو تكلف المعانى من أجله ، وجعلها تابعة له من غير أن يبالى المتكلم بها ما كانت . وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة ، إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة . (٢)

ورأى فريق آخر من العلماء والباحثين أنه يجوز إطلاق صفة السجع على فواصل الآيات القرآنية وأنه لا غضاضة فى ذلك لأن السجع من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة ، وبينون الأمر فى ذلك على تحديد معنى السجع عند أهل اللغة فهو « موالاة

١ - الإمام على بن عيسى الرماني ؛ من كتاب ثلاث رسائل الرسالة الثانية .

٢ - انظر ، ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، تحقيق د/ محمد زغلول سلام طبعة دار المعارف ،

الرسالة الثانية (التكت فى إعجاز القرآن) للشيخ الإمام على بن عيسى الرماني (٢٩٦ -

٢٣٨٦) ص ٨٩ ، ص ٩٠ .

الكلام على وزن واحد .

« والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال : أن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفواصل . والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع .

وضرب لا يكون سجعا وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين - أعنى التماثل والتقارب من أن يأتي طوعا سهلا وتابعا للمعاني ، وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض .

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم الأول المحمود لعلوه في الفصاحة ، ومثل للنوع الأول وهو التماثل المحمود بقوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر » . وقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العباد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طفوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد » .

ولعل الذي دعا منكرى السجع في القرآن لرأيهم هذا هو تنزيههم إياه عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب .

والحقيقة أنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في

كونه مسجوعا .. ولا فرق بين المواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع (١).

السجع نمط من أنماط النثر الفني عند العرب :

السجع نمط من أنماط النثر الفني ألفه العرب قبل الإسلام ، وفي حاضر الإسلام ، وبعد الإسلام حتى عصرنا ، ومن يقرأ آداب العرب قبل الإسلام سيجد أن ما كان من كلامهم نثرا تتخلله الأسجاع بالفطرة والسليقة وقد يجد فيه تكلفا في بعض الأحيان وهو بما يستكره لأنه يقصد لذاته ، أما ما سلم من التكلف فهو سجع مقبول محمود تطرب له آذان السامعين وتسمو به المعاني لديهم .

فلقد نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب الفصيح من كلامهم ، ولكي نعيش هذا المعنى لابد من الاطلاع على أساليب الكلام التي نقلها لنا القدماء في كتبهم وقدموا لنا فيها ما أثر من كلام العرب في الأحوال والموضوعات المختلفة ، حتى نعلم كيف أن القرآن الذي هو من جنس كلام العرب معجز في نظمه حتى عجزوا عن محاكاته ، ولسوف تتضح لنا حقيقة أن لغة العرب من أغنى اللغات كلها وأعرقها قدماً وأعذبها منطقاً وألسنها أسلوباً ، وأغزرها مادة ، وأوسعها تصريفاً يدلنا على ذلك بقايا شعرهم ونثرهم التي ربما تعود إلى نحو خمسين ومائة سنة قبل ظهور الإسلام ، كما تشهد أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز بعلو شأن هذه اللغة بين القبائل العربية حيث كانت تعقد المسابقات للتحكيم في شعر الشعراء ، وخطب الخطباء فالكلام صناعتهم والبيان غايتهم .

١ - د/ حفي محمد شرف ، مجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق ، ص ٤٥ من سلسلة كتب ، المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية ، الكتاب الرابع ١٣٩٠ - ١٩٧٠ م .

ونعرض فيما يلي نبذة من كلامهم فى الوصف كمثل يقرب لنا معنى الفصاحة التى وصلوا إليها ومدى البلاغة التى ارتقوا إليها فى المنثور من كلامهم، قالوا : فى قصصهم أن الحارث بن عمرو ملك كندة . * لما بلغه جمال بنت عوف بن محلم وكمالها وشدة عقلها ، دعا عند ذلك امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب . فقال لها : إنه قد بلغنى جمال ابنة عوف وكمالها ، فاذهبى حتى تعلمى لى علمها . فمضت حتى انتهت إلى أمها ، وهى أمامة بنت الحارث ، فأعلمتها ما قدمت له . فأرسلت إلى ابنتها : أى بنية ! هذه خالتك أنتك لتتظير إليك ، فلا تستترى عنها بشيء إن أرادت النظر من وجه أو خلق ، وناطقها إن استنطقتك . فدخلت إليها فنظرت إلى مالم ير مثله فط . فخرجت من عندها وهى تقول : ترك الخداع من كشف القناع . فأرسلتها مثلاً . ثم انطلبت إلى الحارث . فلما رآها مقبلة قال : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صرح المحضر^(١) عن الزبدة . رأيت جبهة كالمرأة المصقولة . بزيتها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته سلاسل ، وإن مشطته قلت : عناقيد جلاها الوابل . وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، تقوسا على مثل عين الطيبة العبهرة^(٢) . بينهما أنف كحد السيف المصقول ، حفت به وجنتان كالأرجوان فى بياض كالجمان ، شقه فيه فم كالخاتم لديد النسم ، به ثنايا غور ،

* انظر كتاب الفاخر ، لفضل الضى (ت ٢٩١) من ص ١٨٥ إلى ص ١٨٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

١ - المحضر : اللبن الخالص الذى لم يخالطه الماء . يقال للأمر إذا انكشف وتبين .

٢ - العبهرة : المتلثة الجسم .

ذات أُشْر^(١) . تقلب فيه لسانا بفصاحة، وبيان بعقل وافر وجواب حاضر، تلتقى دونه شفتان حمّاوان^(٢) تحلبان ريقاً كالشهد؛ ذلك في رقبة بيضاء كالفضة، ركبت في صدر كصدر تمثلاً دمية، وعضدان مدمجان، يتصل بهما ذراعان، ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس؛ ركبت فيهما كفان، دقيق قصبهما، لين عصبهما . يعقد إن شئت منهما الأنامل . تتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها . تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى المدمجة^(٣) كسى^(٤) عكناً كالقراطيس المدرجة، تحيط تلك العكن^(٥) بسرة كالمدهن المجلو . خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهى ذلك إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر . لها كفّل يقعدها إذا قامت، ويقىمها إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل لبده سقوط الطل . تحملها فخذان لفاوان كأنهما قفلتا على نضد جمان، تحتها ساقان خدلّتان كلابرديتين شيتتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان . فتبارك الله مع صغرها كيف يطيقان ما فوقهما ؟ !^(٦)

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها .. فأنت ترى إلى روعة الوصف جمال السجع الذى يزين الكلام .

١ - أُشْر : حدة ورقة فى أطراف الأسنان . والجمان : حبات الفضة .

٢ - حمّاوان : حمراوان . ومدمجان : ملفوفان .

٣ - تتأ : برز ، القباطى للدمجة : الحرير المشتى . ٤ - كسى : فى الميدانى : كسر .

٥ - تحيط تلك العكن بسرة : العكنة الطى الذى فى البطن من السمن والجمع عكن وأعكان .

تخلّة : ممثلة فى استدارة .

٦ - أبو طالب المفضل بن عاصم القصبى (ت ٢٩١) ، الفاخر، ص ١٨٦ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م .

أسجاع العرب فى الأنواء :

ومن قولهم فى الأنواء تلك العبارات المسجوعة التى تصف مناسبات
الأنجواء مثل :-

- « إذا طلع السرطان ، استوى الزمان ، وخضرت الأغصان ، نهادت
الجيران » .

- إذا طلع البُطَيْن ، اقتضى الدين ، وظهر الزين واقتفى بالعطاء والقيّن .
- إذا طلع النجم - يعنى الثريا - فالحرُّ فى حنم ، والعُشبُ فى حطْم .
والعانات فى كنم .

- إذا طلعت الجوزاء ثَوَّقَدَتِ المَعزَاء ، وكَنَسَتِ الظباء ، وعَرَقَتِ العِلْيَاء ،
وطاب الخبَاء .

- إذا طلعت الدَّرَاع ، حَسَرَتِ الشمسُ القناع ، واشعلت فى الأفق
الشعاع وترقرق السراب بكل قاع .

- إذا طلعت العَوَاء ، ضُربَ الخبَاء ، وطاب الهواء ، وكَرِهَ الغَرَاء ، وشَتَنَ
السَّقاء .

- إذا طلع السَّمَاك ، ذهب الحِكَاك ، وقل الماء على اللكاك .

- إذا طلع سعد السعود ، نضر العود ، ولانت الجلود ، وكَرِهَ فى
الشمس القعود (١)

وفى هذه العبارات كما نرى نوع من الحلية اللفظية يحسن وقعها

١ - السيوطى ، المزمع فى علوم اللغة وأنواعها ، المجلد الثانى من ٥٢٩ ، ٥٣٠ نشر دار الفكر .

فى الأسماع وتأثيرها فى النفوس فيها ألفاظ منتقاة ومتناسبة فى الوزن، متشابهة فى النغم والجرس كما نلاحظ قصر الجمل أو توسطها وكثيرا ما كانوا يلتزمون ذلك فى الحكم والأمثال والوصايا يميلون فيها إلى الإيجاز من غير إخلال بالمعنى.

ولغة التخاطب عند عرب الجاهلية هى تلك التى تظهر فى أشعارهم وخطبهم وكتاباتهم لافرق بينها فى البلاغة إلا بقدر ما يستدعيه الموقف عند الخطابة أو الكتابة أو مقالة الشعر من نبالة الموضوع والتأنق فى العبارة وليس أدل على ذلك من حديث أم زرع المشهور الذى روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :-

فقد روى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : (١)

جلست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا .

فقالت الأولى : زوجى لحم جميل غث (٢) ، على رأس جميل وعث (٣) ، لاسهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى (٤) .

قالت الثانية : زوجى لا أثبت خبيرة ، إنى أخاف أن لا أذره ، إن

١ - قال السيوطى : راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥ : ٢١٢ ، والتجريد للزبيدي

٢ : ١٣٢ وفيما بين الأقواس زيادة ليست فى هذين الكتابين .

- توقدت المراء : أصابها الحر الشديد ، كسبت الظباء : الظبي الكانس : هو الذى يدخل فى كئاسه وهو موضعه من الشجر يكتن فيه ويستر .

- عرقت العلاء : كناية عن شدة الحر .

٢ - الغث = الهزيل . ٣ - الوعث = الصعب المرتقى .

٤ - ينتقى = أى ليس له نقى والنقى = المخ .

أَذْكُرُهُ أَذْكُرُ عَجْرَهُ وَيُجَرِّهِ (١).

قالت الثالثة : زوجى السَّثَقُ (٢)، إن انْطَقَ أَطْلَقَ ، وإن أَسْكُتَ أَعْلَقَ ، [على حَدِّ السَّنَانِ الْمَذْلَقِ] (٣).

قالت الرابعة : زوجى كَلَّيلَ تَهَامَةٍ ، لا حَرَ ولا قُرَ ، ولا وَخَامَةً ولا سَامَةً ، [والغِيثُ غِيثُ غَمَامَةٍ] .

قالت الخامسة : زوجى إن دَخَلَ فَهَدَ ، وإن خَرَجَ أَسَدَ ، ولا يَسْأَلُ عَمَّا عَهْدَ [ولا يرفع اليومَ لَعْدَ] .

قالت السادسة : زوجى إن أَكَلَ اقْتَفَ (٤)، وإن شَرِبَ اشْتَفَ ، وإن اضْطَجَعَ التَّفَ [وإذا تَبَحَّحَ اغْتَثَ] ولا يُولِجُ الكَفَ ، ليعلمَ البَثَّ .

قالت السابعة : زوجى غَيَّاءَ ، أو غَيَّاءَ طَبَاقَاءَ ، كل داءٍ له داءٌ، شَجَّكَ [أو بَجَّكَ] أو فَلَكَ أو جَمَعَ كُلاً لَكَ . (وغَيَّاءُ بمعنى النَّهْمَكِ فى الشرِّ ، وغَيَّاءُ بمعنى الذى تعيبه مَبَاضِعَةُ النِّسَاءِ وطَبَاقَاءُ بمعنى أَحْمَقَ) .

قالت الثامنة : زوجى الْمَسَّ مَيَّ أَرْنَبَ ، والريحَ رِيحَ زَرْنَبَ [وأنا أَغْلِبُهُ والنَّاسُ يَغْلِبُونَ] . (الزَّرْنَبُ نَبْتُ طَيبِ الرَّائِحَةِ) .

قالت التاسعة : زوجى رَفِيعَ الْعِمَادِ ، طَوِيلَ النَّجَادِ ، عَظِيمَ (٥) الرَّمَادِ ، قَرِيبَ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ ، [لا يَشْبَعُ لَيْلَةٌ يَضَافُ ، ولا يَنَامُ لَيْلَةٌ يَخَافُ] .

١ - أرادت بمجره وبجره عيوبه الظاهرة والباطنة .

٢ - السَّثَقُ = السَّيِّئُ الْخُلُقِ . ٣ - الْمَذْلَقُ = الْمَحْدَدُ .

٤ - فى رواية البخارى ومسلم : لَفَ . واقتف بمعنى جمع واستوعب واشتف بمعنى استقصى .

٥ - فى رواية البخارى ومسلم : رَفِيعَ .

قالت العاشرة : زوجي مالك . وما ملك (١) مالك خير من ذلك ،
له إيل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت الزهر أيقن
أنهن هوالك ، [وهو إمام القوم في المهالك] .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناس من
حلى أذننى [وفرعى] وملأ من شحم عضدى ، وبجحنى فبجحت نفسى
إلى (٢) ، وجدنى فى أهل غنيمة بشق ، فجعلنى فى أهل سهيل وأطيط
ودائس ومنق ، فعنده أقول فلا أقبح ، وأرقد فأتصبح ، وأشرب فأتقنع ، وأكل
فأتمنح . (أتقنع أى لا أجد مساعها وأتمنح أى أطعم غيرى) .

أم أبى زرع : فما أم أبى زرع ؟ عكومها رداح ، وبيتها فساح .
(عكومها : أعدالها ، رداح = ملى) .

ابن أبى زرع : فما ابن أبى زرع ؟ كمسل شطبة ، وتشبعه ذراع
الجفرة ، [وقرويه فيقة اليعرة ، ويميس فى حلق الشرة] .

بنت أبى زرع : فما بنت أبى زرع ؟ طوع أيها ، وطوع أمها [وزين
أهلها ونسائها] وملء كسائها [وصفر (٣) رداها] وعقر (٤) جارتها
[قباء هضيمة الحشا ، جائلة الشاح ، عكناء ، فعماء ، نجلأء ، دغجاء ،

١ - فى رواية البخارى ومسلم : وما ملك .

٢ - فى رواية البخارى ومسلم : فبجحت إلى نفسى . أناس = أقل ، فرعى = يدى
بجحنى = عظمى ، غنيمة = تصغير غنمة ، وشق معناه جهد من العيش ،
وأصل سهيل = خيل ، وأطيط = إيل ، دائس = زرع ، منق = أصوات المواشى أو
الدجاج .

٣ قال ابن الأثير : صفر رداها وملء كسائها ، أى أنها ضامرة البطن ، فكان رداها صفر ،
أى خال ، والرداء ينتهى إلى البطن فيقع عليه

٤ وعقر جارتها ، أى هلاكها من الحسد والفيظ . ورواية البخارى ومسلم : وعظ جارتها

رَجَاءٌ، زَجَاءٌ، قَنَوءٌ، مَوْنَقَةٌ مُنْفَقَةٌ، بَرُودُ الظِّلِّ . وَفِي الْأَلِّ ، كَرِيمَةٌ الْخَلِّ [. بَرُودُ الظِّلِّ] أَرَادَتْ أَنَّهَا وَفَى الْعَهْدَ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ، لِأَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ إِلَى مَعْنَى التَّشْبِيهِ أَيْ هِيَ كِبَرُودُ الظِّلِّ ، وَمِثْلُ الرَّجُلِ الْوَفِيِّ [(١)] .

جَارِيَةُ أَبِي زَرَّعَ : فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرَّعَ ؟ لَا بُدَّ حَدِيثَنَا تَبَشِيرًا ، وَلَا تَنْقُتْ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، وَلَا تَمْلَأْ بَيْتَنَا تَعَشِيرًا .

[ضَيْفُ أَبِي زَرَّعَ : فَمَا ضَيْفُ أَبِي زَرَّعَ ؟ فِي شَبَعٍ وَرِيٍّ وَرَقٍّ [(٢)] .

[طَهَاءُ أَبِي زَرَّعَ : فَمَا طَهَاءُ أَبِي زَرَّعَ ؟ لَا نَفْتَرَ وَلَا نَعْمَرُ ، نَقْدَحُ وَنَتَصِبُ أُخْرَى ، فَتَلْحَقُ الْآخِرَةُ بِالْأُولَى] .

[مَالُ أَبِي زَرَّعَ : فَمَا مَالُ أَبِي زَرَّعَ ؟ عَلَى الْجُمَمِ مَعْكُوسٌ ، وَعَلَى الْمَفَاةِ مَجْبُوسٌ]

قَالَتْ : خَرَجَ أَبُو زَرَّعَ مِنْ عِنْدِي وَالْأَوْتَاطَابُ تُنْمَخَضُ ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْلَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرِمَانَتَيْنِ ، فَتَكَحَّهَا فَأَعْجَبَتْهُ (٣) فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَنِي [فَاسْتَبَدَلْتُ وَكُلَّ بَدَلٍ أَعْوَرًا] فَتَكَحَّتْ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا ، شَرِيًّا ، رَكِبَ وَأَخَذَ خَطِيئًا ، وَأَرَاخَ عَلَى نَعْمًا ثَرِيًّا ، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا ، وَقَالَ : كُلِّي أُمَّ زَرَّعَ ، وَمِيرَى أَهْلِكَ . قَالَتْ : فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آتِيَةِ أَبِي زَرَّعَ .

١ - أبو عبيد الهروي (ت ٤٠١)، كتاب الفريسيين غريب القرآن والحديث ج ١، ص ٧٢، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتحقيق محمود محمد الطناحي، القاهرة ١٣٩٠ - ١٩٧٠.

٢ - الربع : التمتع .

٣ - عبارة البخاري وسلم : يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقني وتكحها، فتكحت بعده رجلا سريًا ، وركب سريًا .

قالت عائشة : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنتُ لك كأبى زرع لأم زرع ، إلا أنه طلقها وإنى لا أطلقك » . فقالت عائشة : بأبى أنت وأمى ! لأنت خير لى من أبى زرع لأم زرع .

ولقد ذكر الإمام السيوطى نماذج كثيرة من هذا الكلام المسجوع فى لغة العرب نقله من كتب السابقين فى موضوعات شتى ، مما يدل على أن العرب كانوا يميلون فى معظم الأحيان إلى السجع فى عباراتهم ويعدون ذلك من الفصاحة وحسن المقال ، فليس الشعر وحده الذى تظهر فيه براعتهم فى الكلام ولكن النثر المسجوع كان يعدّ لونا من الألوان التى تظهر براعتهم فى البيان وصناعة الكلام .

ونجد حتى فى أشعار العرب ميلاً للكلام بالسجع فهم لا يكتفون بالقافية وحدها ، بل كانوا يلجأون إلى الترصيع أحيانا كقول الأعرابى فى ابنته راجيا أن تكبر ويأتيها الخطاب من كل مكان :

يأليتها قد لبست وصواصاً وعلقت حاجبها تَمَاصاً (١)
حتى يجيئوا عصبا حراصاً ويرقصوا من حولها إِرْقاصاً (٢)
فيجدونى عكراً حياصاً (٣) .

١ - الوصاوص : البرقع ، والمعنى : يأليتها كبرت حتى تحجب فتليس البرقع . والتماص : من التثف الذى تفعله النساء بهواجها .

٢ - يجيئوا عصبا يعنى الخطاب يجيئون جماعات يطلبون يدها ، يرقصون : يعنى يرقصون إيلهم فيستعجلونها فى السير .

٣ - المكر : المراوغ ، وحياصا : معرضا عنهم .

انظر الفاخر ، لابن عاصم ، بتحقيق عبد العليم الطحاوى ومحمد على النجار طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب ص ٣٦ .

فهو يتمنى لها أن تكبر وتلبس البرقع، وتنتفحاجبها تزينا فيجىء
في طلبها الخطاب من كل حذب وصوب يستحثون الإبل ويستعجلونها
في السير، فيراوغهم هو ويميل عنهم .

فانظر كيف جمع بين السجع والتقفية في شعره الذى جعل يتغنى
به ويدلل به ابنته، وحرف الصاد هو من حروف الصغير الذى تظهر معه
الموسيقا ويلائم حالة الغناء والتدليل .

ومن ذلك أيضاً قول هند بنت عتبة يوم أحد تخرض رجال الكفار
على القتال والنسوة معها تغنى :

إِنْ تَقْبَلُوا نَعَاتِي وَتَقْرَضُ النَّمَارِقُ
أَوْ تَذْبِرُوا نَفَارِقِي فِرَاقٌ غَيْرُ وَاقٍ (١)

وفي غزوة أحد أيضاً برز أبو دجانة في عصابته الحمراء لما أعطاه
رسول الله ﷺ السيف لمحاربة الكفار وخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم للدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول (٢)

كما أنهم قد يجعلون السجعة فى الكلام القليل لتكون أوقع فى
النغم والفهم : فمن ذلك ما ورد فى أمثالهم :

١ - النمارق : جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة . الواقع : المحب (انظر سيرة ابن هشام
ج ٢٠ / ٣) .

٢ - الكيول : آخر الصفوف فى الحرب . وقال ابن هشام : ويروى فى الكيول (أى القيود)
(السيرة النبوية لابن هشام ج ٢٠ / ٢) .

قولهم - وَيْلَهُ وَعَوَّلَهُ . (لمن يشتد حزنه وعويله) (١)
 وقولهم - ماله ثاغية ولا راغية . (٢) (فيمن اشتد فقره : يعنى ماله
 نعمة والثغاء صوتها ، ولا ناقة والرغاء صوتها)
 وقولهم - ماله مَبَدٌّ ولا لَبَدٌ . (٣) (كناية عن الفقر ؛ فالسبد شعر
 المعز واللبد وبر الأبل) .
 وقولهم - ما يَفْقَهُ ولا يَنْقَهُ . (٤) (أى ما يَعْلَم ولا يفهم)
 وقولهم - أحقق مَقِّق . (٥) (للدلالة على الحمق وسوء الخلق معاً) .
 وقولهم - ما حَجَّ ولا دَجَّ . (٦) (فالحاج الذى يحج لله عز وجل ،
 والداج : الذى يخرج للتجارة والمعنى لم يصب خيراً) .
 وقولهم - ما زلنا بالمهياط والمياط . (فالمهياط أشد السَّوق فى
 الورد ، والمياط أشد السَّوق فى الصَّدر والمعنى ما زلنا فى المجيء والذهاب
 لم ننجز شيئاً) .

* * *

رأينا مما سبق أن العرب كانوا كثيرا ما يسجعون فى كلامهم ، وإنما
 نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلامهم ، ولكن الرمانى يذكر أن
 الأشاعرة يذمون السجع ويعدونه عيباً ، كذلك ذهب الباقلانى إلى نفى
 هذا السجع عن القرآن بحجة أن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم
 يحال إليه المعنى « والأشاعرة بدورهم يتخذون قصة ذم السجع فى
 حديث الجنين متكأ لهم يستندون عليه ، ويررون موقفهم بواسطته .

٢ - المصدر السابق ص ٢١ .

٤ - المصدر السابق ص ٣٠ .

٦ - المصدر السابق ص ٣٥ .

١ - الفاخر لابن عاصم ص ٢٠ .

٣ - الفاخر لابن عاصم ص ٢٧ .

٥ - المصدر السابق ص ٣٤ .

ومن قصة هذا الحديث : أن حَمَلَ بن مالك بن النابغة كان قد تزوج بامرأتين : يقال لإحدهما مليكة بنت ساعدة وللأخرى : أم عفيفة بنت مسروح فتعايرتا كما هو الشأن دائما بين الضرتين ، فضربت أم عفيفة مليكة بمسطح بيتها أو بعمود فسطاطها ، وهي حامل فالتقت جينها ، ورفعت قضيتها إلى النبي ﷺ ، فقضى على عاقلة الضاربة بغرة : عبد أو أمة . فقال أخوها العلاء بن مسروح يارسول الله : أنفرم من لا أكل ولا شرب ولا نطق ولا استهل فمثل هذا يُطَلَّ ؟ (١) .

« فقال عليه السلام : أسجع كسجع الجاهلية ؟ وقد روى قول النبي بعدة روايات : منها « أسجع كسجع الجاهلية وكهانتها ؟ » ومنها « دعنى من أراجيز الأعراب » ومنها « أسجاعة بك » ومنها « أسجع كسجع الجاهلية ؟ » قيل : يارسول الله ، انه شاعر » ومنها « لسننا من أساجيع الجاهلية فى شيء » ومنها « إنما هذا من إخوان الكهان » ومنها « ان هذا ليقول بقول شاعر ، بل فيه - أى الجنين - غرة » . (٢)

« ونحن لانفهم أن النبي ذم السجع من خلال هذا الحديث الذى تعددت الروايات فيه ، فردَّ العلاء بن مسروح أهاج النبي ، وأثار ثأثرته ، لأنه ردَّ ينطوى على إهداد حق من الحقوق المقررة فى شريعة الإسلام

١ - يُطَلَّ = يهترده .

٢ - د/ فتحي أحمد عامر ، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ص ٢٠٦ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والسنة طبعة أولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

وبخاصة أن العلاء كان يتشادق بقوله المسجوع المبدوء باستفهام تشتم منه رائحة الاستنكار فكأنه اعترض على حكم النبي ، ولم يعجبه قوله ، وفي هذا فتح لباب واسع من أبواب التشكك في الدين توشك أن تطل منه فتن كقطع الليل المظلم وكان النبي يغضب إذا كان مساس بدعوته ودينه بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا . »

فالرسول برده هذا على العلاء بن مسروح لم يستنكر السجع في ذاته وإنما استنكره باعتبار ما يؤدي إليه من الاعتراض على شريعة الإسلام . وكيف يستنكر النبي ﷺ السجع وهو نفسه يسجع ؟ أليس هو القائل في دعائه (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشيع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع) رواه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح (١) .

حسم الخلاف بين العلماء في وصف الفواصل بالأسجاع :

ولقد جمع بعض الباحثين المحدثين آراء الفريقين لبعض علماء البلاغة نحب أن نذكرها لتقف على وجهات النظر المختلفة ثم نخلص بعد ذلك إلى الرأي الراجح منها (٢) :

١ - أبو عيسى الترمذى ، الجامع الصحيح ، راجعه عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكنتى صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، الحديث رقم ٣٥٥٤ من الجزء الخامس من ١٨٣ .

٢ - راجع د/ أحمد إبراهيم موسى ، الصيغ البدئية في اللغة العربية من ص ٤٢ إلى ص ٤٩ ، الناشر دار الكتاب العربى نشر بالقاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م . من ص ٤٢ إلى ص

رأى الباقلاني :

عقد أبو بكر الباقلاني (١) في كتابه إعجاز القرآن فصلا ففضافا
دلل فيه على نفى السجع من القرآن تلخصه في النبد التالية :

قال - ذهب أصحابنا كلهم (٢) إلى نفى السجع من القرآن.
وذكره أبو الحسن الأشعري في موضع من كتبه .

وذهب كثير من يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن ، وزعموا أن
ذلك مما يبين به فضل الكلام كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك ،
وأقوى أدلتهم على ذلك :

اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام،
ولمكان السجع قيل في موضع (هارون وموسى) وفي موضع (موسى
وهارون) .

وقد جاء في القرآن سجع كثير فلا يصح أن يتفق كله غير مقصود
إليه .

ويبنون الأمر في ذلك كله على تحديد معنى السجع . قال أهل
اللغة (هو موالاة الكلام على وزن واحد) قال ابن دريد . سجعت
الحمامة معناها رددت صوتها وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجع تمليل بها ضحوا غصوب نوائح (٣)

١ - هو القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٤ .

٢ - أراد بهم أصحاب أبي منصور الماتريدي .

٣ - نوائح : موائل .

ثم أخذ الباقلاني يرد على المثبتين ما ذهبوا . قال : لو كان القرآن سجماً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذين جاءوا وكلموه في شأن الجنين ، كيف ندى من لا شرب (١) ولا أكل ولا صاح فاستهل أليس دمه قد يطل ، فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية . وفي بعضها أسجماً كسجع الكهان . فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالة . ثم قال : والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجماً لأن ما يكون به الكلام سجماً يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، ثم قال : إنه لو كان سجماً لعارضوه لقدرتهم على ذلك ، ولما تحيروا فيه فوصفوه بالسحر ، ثم قال : ولا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروى غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ولو بنى عليه لكان الشعر مسجماً لأن رويته يتفق ولا يختلف . ثم قال : وأما الأمور التي يستريح إليها الكلام فإنها تختلف فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك إنما يكون في الشعر ، وربما كان ما

١- في الأصل . من لا أكل ولا شرب ولعل فيه تقديماً وتأخيراً حتى يوافق جميع الروايات في سائر المصادر

ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع، وربما سمي ذلك فواصل،
وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام
ولا تناسب. ثم قال : وأما ما ذكره من تقديم موسى على هارون في
موضع وتأخير ه عنه في موضع لمكان السجع فليس بصحيح، لأن الفائدة
عندنا غير ما ذكره وهي : أن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي
معنى واحدا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة ، وأعيد كثير من
القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على
عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا ، ولو كان فيهم تمكن من
المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي معناها
وتحويها وجعلوها يازاء ما جاء به وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته
فيما جاء به ، كيف وقد قال لهم : « فليأتوا بحديث مثله إن
كانوا صادقين » - الطور ٣٤ - ، فعلى هذا يكون المقصد بتقديم
بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقتين جميعا دون
التسجيع الذي توهموه، ثم قال : قَبَّانَ بما قلنا أن الحروف التي وقعت
في الفواصل متناحية موقع النظائر التي تقع في الأسجاع لا يخرجها عن
حدها ولا يدخلها في باب السجع. ثم ختم الفصل بقوله : ولا بد لمن
جَوَّزَ السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم لما ذهب إليه النظام وعباد
بن سليمان وهشام القرظي ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن
وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضربا من
الصرف . (١)

١ - نقله د / أحمد إبراهيم موسى ملخصاً من « كتاب إعجاز القرآن » للباقلاني ونقلناه عنه من
كتابه « الصبغ البديعي » .

رأى أبى هلال العسكري (١) :

عقد أبو هلال فى الصناعتين بابا للسجع والازدواج جاء فيه :
« وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف
فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة لما يجرى مجراه من
كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز اسمه : « والعاديات ضبحا . فالموريات
قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نغما . فوسطن به جمعا » قد بان عن
جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : « والسماء
والأرض . والقرض والقرض . والغمر والبرض » (٢) ومثل هذا من
السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف . ولهذا قال النبى صلى الله
عليه وسلم لرجل قال له : « أندى من لاشرب ولا أكل ولا صاح
فاستهل فمثل ذلك يُطل » أسجعا كسجع الكهان . لأن التكلف فى
سجعهم فاش ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعاً لقال :
« أسجعا » ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرىء
من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد
جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام مثل قوله : « أيها الناس أفشوا
السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام
تدخلوا الجنة بسلام » .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة
بين الألفاظ واتباع الكلمة أخواتها كقوله : « أعيذه من الهامة والسامة
وكل عين لامة » وإنما أراد ملحة . وقوله : « أرجعن مأزورات غير

١ - هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

٢ - الغمر : الماء الكثير . والبرض : القليل .

مأجورات» وإنما أراد موزورات من الوزر فقال: مأزورات لمكان مأجورات
قصدا للتوازن وصحة التسجع، فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على
شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف . (١)

رأى ابن سنان الخفاجى (٢) :

قال ابن سينا فى سر الفصاحة : « ومن المناسبة بين الألفاظ فى
الصيغ السجع والازدواج ويحد السجع بأنه تماثل الحروف فى مقاطع فى
الكلام وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً . وحجة من يكرهه أنه ربما
وقع بتكلف وتعمل واستكراه فأذهب طلاوة الكلام وأزال مائه . وحجة
من يختاره . أنه مناسبة بين الألفاظ بحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها ،
ولولا ذلك لم يرد فى كلام الله تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه
وسلم ، والفصيح من العرب . وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه ،
كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف فى فصوله ثم قال : والمذهب
الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ،
وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون
موافقة لفظه ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل أنه لأجله ورد ، ليصير
وصلة إليه ، ثم قال : أما الفواصل التى فى القرآن فإنهم سموها فواصل
ولم يسموها أسجاعاً وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه
ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل هى التى تتبع المعانى ولا تكون

١ - تلخيص / د/ أحمد إبراهيم موسى ، الصيغ اليلهى ص ٤٤ الهامة : الدابة . السامة : الموت
وذاة السم من الحوان . العين للامة المصية بسوء .

٢ - هو الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلى المتوفى سنة
٤٦٦ . وكان ممن يقولون بالصرقة .

مقصودة في أنفسها، وقال على بن عيسى الرماني ، « إن الفواصل بلاغة
والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع يتبعه المعاني
والفواصل تتبع المعاني . وهذا غير صحيح . »

والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف
متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه، والفواصل على ضربين ،
ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لا يكون
سجعا وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ولا يخلو كل واحد
من القسمين أعني التماثل والتقارب من أن يأتي طوعا سهلا وتابعا
للمعاني وبالعقد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فإن كان من
القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان
من الثاني فهو مذموم مرفوض ، ثم أشار إلى أن ما في القرآن كله إنما
هو المحمود وساق أمثلة للمتماثل ثم قال : « وهذا جائز أن يسمى سجعا
لأن فيه معنى السجع ولأمانع في الشرع يمنع من ذلك . »

ثم قال : وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن
فواصل ولم يسموا ماتماثلت حروفه سجعا رغبة في تنزيه القرآن عن
الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض
في التسمية قريب، فأما الحقيقة فما ذكرناه لأنه لا فرق بين مشاركة
بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعا وبين مشاركة جميعه
في كونه عروضا، وصوتا، وحروفاً، وكلاماً، وعربياً ، ومؤلفاً ، وهذا مما
لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل
حروفها في المقاطع وبين السجع .

رأى ابن الأثير صاحب المثل السائر (١) :

عقد ابن الأثير في كتابه « المثل السائر » فصلاً مطولاً في السجع
حذا فيه حذو أبي هلال في الصناعتين ، وأرى عليه حتى تكلف إلى أن
جعل ما ورد من نظم القرآن غير مسجع لإرادة الإيجاز والاختصار ،
استمع إليه يقول (٢) : « فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات
الكلام على ما ذهبت إليه فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً
وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قلت في
الجواب : إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتي جميعها
مجموعة وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك
الإيجاز والاختصار ، والسجع لا يأتى في كل موضع من الكلام على
حده الإيجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب (٣)
ثم قال : وما هنا وجه آخر أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من
الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن
ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن
أجل ذلك تضمن القرآن القسمين ، ثم أرى عليه في توجيه الحديث ،
قال : إن النهي لم يكن عن السجع نفسه وإنما النهي عن حكم الكاهن
الوارد باللفظ المسجوع . ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه

١ - هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى الشافعى
المتوفى سنة ٦٣٧ .

٢ - المثل السائر - ٧٦ .

٣ - وتلك جرأة وبعد عن هدف التوفيق من ابن الأثير إذ كلامه يعطى أن الله ترك السجع إلى
غيره لأنه لا يأتى في كل موضع على حد الإيجاز والاختصار تعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً .

وسلم فى الجنين بغرة عبد أو أمة . قال الرجل « آدى من لاشرب ولا
أكل ، ولانطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل » فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « أسجعا كسجع الكهّان » ، أى أتتبع (١) سجعا كسجع
الكهّان ، وكذلك الكهنة كلهم فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا
بالكلام مسجوعاً . ثم قال فالسجع إذن ليس بمنهى عنه وإنما المنهى
عنه هو الحكم المسجوع (٢) فى قول الكاهن ، فقال الرسول صلى الله
عليه وسلم « أسجعا كسجع الكهّان » أى أحكما كحكم الكهّان ، وإلا
فالسجع الذى أتى به الرجل لأبأس به لأنه قال ، آدى من لاشرب ولا
أكل ، ولانطق فاستهل ، ومثل ذلك يطل ، وهذا الكلام حسن من حيث
السجع وليس بمنكر لنفسه ، وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى
امتناع الكاهن أن يذى الجنين بغرة عبد أو أمة .

رأى التوخى : (٣)

قال التوخى (٤) « ومن عاب السجع مطلقاً فمخطيء لأن السجع
فى كلام الله كثير وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والفصحاء
كقس وسجبان ، وإنما يعاب السجع إذا احتاج متكلفه إلى تنقيص المعنى
أو زيادته وفعل ذلك . فالذى فاته من المعنى يقبح وترك السجع لا يقبح
فيكون حينئذ السجع قبيحا لاستلزام القبح . وبهذا يجاب عن قول النبى

-
- ١ - هكذا فى الأصل ولعلها أسجع .
 - ٢ - فى الأصل المتبوع والظاهر أنها للسجع .
 - ٣ - هو الإمام زين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمرو التوخى أحد أعيان المائة
السابعة الهجرية .
 - ٤ - فى كتابه الأقصى القريب فى علم البيان .

صلى الله عليه وسلم « أسجعا كسجع الكهان » . فإنه لو غاب السجع مطلقاً لما نطق به ، ولا يمكنه أن يعيبه مطلقاً مجيئه في كتاب الله تعالى كثيراً ، فالمعيب هو سجع مخصوص وهو الذى مثله بسجع الكهان وهو الذى ينقص المعنى أو يزيده .

رأى اليمنى صاحب الطراز (١) :

عرض للمذهبين فى السجع ، الجواز والكراهة وساق أدلة للمذهبين تدور حول ما تقدم ، وجنح إلى الجواز ، وبين أنه هو المعول عليه عند علماء البيان .

هذه جولة جلناها فى كتب المؤلفين الذين عرضوا للسجع عرضاتها بإيجاز استيفاء للبحث وتتميماً للغرض (٢) .

وبعد هذا العرض لموجز الآراء لدى العلماء السابقين يعلق الباحث بقوله :

والذى نراه مطمئنين إليه هو ما يراه المجيزون من أمثال أبى هلال وابن سنان والتنوخي باحتياطاتهم المتقدمة . وذلك لحسن موقعه فى السمع وتأثيره فى النفس ، وخلاسته للعقل ، وسهولته فى الحفظ ، ولا ترى مانعاً من إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل ، مادام لم يرد نص شرعى صريح يمنع من ذلك كما قال ابن سنان الخفاجي (٣) .

١ - هو أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى المتوفى سنة ٧٤٩ .

٢ - د/ أحمد إبراهيم موسى ، الصبغ البدئى ، ص ٤٩ .

٣ - هذا رأى الدكتور أحمد إبراهيم موسى صاحب كتاب « الصبغ البدئى فى اللغة العربية » ، وهو رأى المعول عليه عند أهل البلاغة وعلماء البيان الذين يميزون إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل .

ونحن مع كل من أجاز إطلاق اسم السجع على الفواصل القرآنية،
إذ لاتعارض بين الفاصلة والسجعة، ولانرى تنافرا أو بعداً بينهما :

« فالقول بالسجع فى القرآن تقرير للفاصلة، والقول
بالفاصلة ليس انكارا للسجع فى حقيقة الأمر، إذ هما
متقابلان أو متلاقيان فى معناهما .

فكلمة آخر الآية تسمى رأس آية أو فاصلة، فإذا توالى
الآيات على نمط واحد، وقد اشتركت حروف أو آخرها
سميت فواصل أو أسجاعا لاغضاضة فى أيهما، إلا أن
الفواصل أعم .

والفواصل فى القرآن الكريم تكون شاجية النغم، حلوة
الجرس عذبة الرنين، تطرب بلفظها، كما تطرب بمعناها،
ليتم لها الحسن من جميع جهاته . (١)

١ - د / ضحى أحمد عامر ، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ص ٢١٦ .

الفصل الثاني

الإعجاز البلاغي للفواصل القرآنية

وفيه :

- بلاغة الفواصل .
- الفواصل من ضروب الإعجاز البلاغي في القرآن .
- من أسرار الإعجاز في الفواصل :
- ١ - المزوجة بين الفواصل .
- ٢ - تناسب الفاصلة .
- ٣ - التمهيد للفواصل بألفاظ تمهد لوقوعها .
- ٤ - تكرير الفواصل في بعض السور .
- ٥ - الربط الفني في الفواصل .
- ٦ - رعاية الفواصل .
- ٧ - تحقيق التناغم والإيقاع المناسب .

بلاغة الفواصل

من أروع صور التحدى التى تميّز بها القرآن تلك الفواصل التى تتمتع بها الآيات، حيث تكون الفاصلة شاهدة فى موقعها على أنها من لدن حكيم خبير، وتدل بنفسها على أنها ليست من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم كما أنها تدل فى الوقت نفسه على صدق نبوته. وكما يعلم أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يكيدون له كيداً، ومن كيدهم أن أحدهم وهو النضر بن الحارث كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس الرسول ﷺ وكانت قريش تستملح حديث النضر، وتصرف عن النبي ﷺ وكان النضر يستهويهم بحديثه عن ملوك الفرس والعجم ويقص عليهم من أخبارهم بأسلوب يجذب إليه أسماع مريدين من العرب، ويستميل به قلوبهم، لكنهم لم يلبثوا أن أصاخوا للنبي صلى الله عليه وسلم لروعة ما يجدونه فى حديثه ﷺ من تلك الفواصل التى تأخذ بمجامع قلوبهم ولما تحمل إليهم من المعانى الجديدة التى لا يجدون لها مثلاً فى حديث النضر بن الحارث الذى كان يروى الحكايات عن رستم وعن أسفنديار وملوك فارس.

قال ابن اسحاق : جلس الرسول يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم (١) :

١ - ابن هشام - السيرة النبوية ، بتحقيق محمد يومى ج ٢ / ٨ مكتبة الإيمان - المنصورة

١٤١٦ - ١٩٩٥ .

إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو
كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها
لا يسمعون ﴿ الأنبياء ٩٨ - ١٠٠ .

قال ابن اسحاق : وأقبل عبد الله الزبيري حتى جلس فقال الوليد
بن المغيرة لعبد الله بن الزبيري ؛ والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد
المطلب أنفا وما قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب
جهنم ؛ فقال عبد الله بن الزبيري : أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا
محمدا : أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد
الملائكة واليهود نعبد عذيرا والنصارى نعبد عيسى ابن مريم عليهما
السلام فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن
الزبيري ورأوا أن قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول ﷺ من قول ابن
الزبيري فقال رسول الله ﷺ وكل ما أحب أن يعبد من دون الله فهو
مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته (١) .

فأنزل الله تعالى عليه في ذلك ﴿ إن الذين سبقوا لهم منا الحسنی
أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسیسها وهم فیما اشتتت أنفسهم
خالدون ﴾ الأنبياء ١٠١ ، ١٠٢ . أى أن عيسى ابن مريم وعذيرا ومن
عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من
يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ونزل فيما يذكرون أنهم
يعبدون الملائكة وأنها بنات الله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل
عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، إلى قوله تعالى

١ - ابن هشام - السيرة النبوية ، ج ٨ / ٢ .

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ الأنبياء ٢٦ - ٢٩ .

ومعنى كلام الوليد بن المغيرة : ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد ، ... أن النضر انهزم فى محاجته للرسول ﷺ ولم يستطع مقارعة الحجة بمثلها .

كما يدل الحوار الذى جرى بين عبد الله بن الزبيرى والوليد على أنهم كانوا يجادلون الرسول ﷺ ، فيرد عليهم بالآيات المنزلة من عند الله فى شأن ما يذكرونه ، ويفحهم بها فلا يجدون كلاما من مثل ما يأتى به النبى ﷺ ، ولقد عجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ الزخرف : ٥٧ أى يصدون عن أمرك بذلك من قولهم ، فهذا الكلام المحكم بالفواصل التى هى كالقوارع التى تحسم الخصومة وتبين وجه الحق فى بلاغة لا يستطيعون الإتيان بمثلها ، أشعرهم جميعا بالعجز فى محاجة الرسول ﷺ .

ولما عجزوا عن محاجة الرسول ﷺ اعترفوا بتفوقه عليهم ولكنهم كابروا ولجأوا إلى حيل الكلام وإلى المفاوضة التى تكون بعد الهزيمة ، فاجتمع الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى والوليد بن المغيرة ، وأمىة بن خلف والعاص بن وائل السهمى ، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما يفيد خيراً مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا

أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين « أى إن كنتم لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة بذلك منكم ، لكم دينكم جميعا ولى دينى (١) » فانظر إلى هذا الرد الإلهى فى الآيات المنزلة التى حسمت الموقف على أبلغ ما تؤدى إليه الفواصل من المعانى فى إحكام لا يستطيعه بشر وهم أهل البلاغة والفصاحة .

ولقد نزلت سورة القلم لتفضح مسلك هؤلاء الكفار فى مراودة النبى ﷺ عن دينه فى أول الدعوة ولتثبت النبى ﷺ فى أمر مواجهتهم وتسفيه أحلامهم حيث كانت لهم عقول لا يتفعمون بها ولم يستعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم وتولى الله سبحانه وتعالى الدفاع عن النبى ﷺ فقال عز من قائل « فلا تطع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون » أى لا تطع يا محمد رؤساء الكفر والضلال فيما يدعونك إليه فإنهم تمنوا لو تلين لهم فترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم وقد روى أن الكفار قالوا للنبى ﷺ : لو عبدت الهتنا لعبدنا آلهتك .

كما أن الوليد بن المغيرة قد جاءه بعض كفار مكة وسألوه أن يقول رأيهم فى القرآن حين اقترب موسم الحج وأرادوا أن يجمعوا قولهم فى ما جاء به محمد ﷺ من القرآن حتى يواجهوا به الحجاج وقبائل العرب كى لا يكذبهم أحد فى وصف ما جاء به ، فقال لهم الوليد بن المغيرة : بل أنتم فقولوا أسمع !

١ - ابن هشام - السيرة النبوية ، ج ٨ / ٢ .

قالوا : نقول كاهن !

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو يزمنة
الكاهن ولا سجمه !

قالوا : فنقول مجنون

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بختقه ولا
تخالجه ، ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه
ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر !

قالوا : فنقول ساحر .

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفشهم
ولا عقدهم .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لعدق -
وما أنتم بقاتلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه
لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء
وأخيه ، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك (١) .

فاسمع لقول الوليد : وما أنتم بقاتلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه

١ - ابن هشام الانصارى - السيرة النبوية بتحقيق الشيخ محمد يوسى ج ١ / ١٦ - الإيمان
- المنصورة - طبعة ١٩٩٥ .

فهذه شهادة منه تدل على مدى العجز والبطلان أمام القرآن ، إذ ليس لهم أن يأتوا بمثله فيضارعوه أو يضاهوه .

وما ذاك إلا لأن أسجاعهم مهما تفتنوا فيها لاتضاهى الفواصل ولا ترقى إلى التأثير فى النفوس بنزع العقيدة الباطلة كما تؤثر الفاصلة ؛ ناهيك عن روعة النظم التى تتسلل إلى النفوس وتهز المشاعر وتضيف إلى معارفهم الشيء الكثير الذى يجهلونه ولا تنهض إليه بلاغتهم بحال .

وتأتى الآيات فى سورة المدثر متوالية لتصور حال الوليد بن المغيرة الذى أفتى كفار العرب بهذه الفتوى الشنيعة وهى وصف القرآن بالسحر مع علمه بأنه حق مقابل نعمة الله بالكفر ونادى على نفسه بالهلاك جزاء كذبه وافتراءه ، وكان أولى به أن يعترف بالحق ولا يكتمه لاسيما أنه كان من وجهاء مكة فقد كان ماله ممدودا ما بين مكة والطائف ويستانه لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفاً وله الكثير من الخيل والإبل والغنم كما أن له أولاداً يقيمون معه فى بلده ويحضرون معه المحافل والجامع وكانوا عشرة ، منهم (خالد ، وهشام ، والوليد) (١) . وعلى الرغم من مظاهر الجاه والعز والسيادة التى تخول له أن يقول قولة الحق أمام الكفار ، إلا أنه كان كذابا مصرا على الكذب والكفر مقيما على العناد لمحمد ﷺ والجحود لما جاء به من القرآن ، فحكم على نفسه بسوء العاقبة ولنسمع لصوت الحق تبارك وتعالى فى تلك الآيات المنزلة فى شأنه ، والتى تؤدى فيها الفواصل أروع ما يكون من أسلوب التهديد والوعيد فى

سورة المدثر ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبين
شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد ، كلاً ، إنه كان لآياتنا
عنيداً ، سارهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، ففُتِلَ كيف قدر ، ثم قتل
كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا
إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ، ساصليه سقر وما أدراك ما
سقر لا تبقى ولا تذر ... ﴾ .

فانظر كيف تتوالى الآيات القصيرة ، التي تلعب فيها الفواصل دوراً
كبيراً في إضفاء المعاني الكبيرة والتصوير الدقيق لحال الوليد فذلك قوله
تعالى ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ الآيات ، تركنا الوليد يفكر ويقدر ، ولنرجع إليه
لنرى ماذا فعل بعد ، قال تعالى ﴿ ثم نظر ﴾ أي أجال النظر مرة أخرى
متفكراً في شأن القرآن ﴿ ثم عبس ﴾ أي ثم قطب وجهه وكلحه ضيقاً
بما يقول ﴿ وبسر ﴾ أي وزاد في القبض والكَلُوح ، كالمهتم المتفكر في
أمر يدبره ، والبسور تقطيب الوجه وهو أشد من العبوس ﴿ ثم أدبر
واستكبر ﴾ أي ثم أعرض عن الإيمان ، وتكبر عن اتباع الهدى والحق
فقال : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أي فقال : ما هذا الذي يقوله محمد
إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة فقال : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ أي
ليس هذا كلام الله ، وما هو إلا كلام المخلوقين ، يخدع به محمد
القلوب ، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور قال الألوسي : هذا
كالتأكيد للجملة الأولى ، لأن المقصود منهما نفى كونه قرآناً أو من كلام
الله تعالى ، ولذلك لم يعطف عليها بالواو ، وفي وصف إشكاله واستنباطه
هذا القول السخيف استهزاء به ، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل ، ويظهر
من تتبع أحوال الوليد ، أنه إنما قال ذلك عناداً وحمية جاهلية ، لا جهلاً

بحقيقة الحال، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون ١١ ﴿صَاصِلِيهِ سَقَر﴾ أى سادخله جهنم يتلظى حرها، ويذوق عذابها ﴿وما أدراك ما سقر﴾ ؟ استفهام للتهويل والتفطيع أى وما أعلمك أى شئ هى سقر؟ ﴿لا تَبْقَى ولا تَذَر﴾ أى لا تبقى على شئ فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الفجار إلا أحرقتة قال ابن عباس : لا تبقى من الدم والعظم واللحم شيئاً ، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبداً ﴿لِوَاَحَةِ لِلْبَشَرِ﴾ أى تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها كقوله تعالى ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ قال الحسن : تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عياناً فهى بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدّ أعناق ﴿عليها تسعة عشر﴾ أى خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكاً من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (١) .

هذا التنوع فى القواصل ما بين الدال المفتوحة ، التى تحمل بين طياتها معانى الرحابة والاتساع ، ثم الرأى الساكنة التى تحمل كل معانى الهول والخطر إلى جانب التصوير الرائع والدقيق فى النظم والربط بين الآيات وكأن القارئ للقرآن يسمع ويرى ويستشعر فى نفسه هول الخطيئة فى كفر الوليد بالنعمة وما ينتظره من العذاب الأليم، وهذا الجرس الموسيقى بين الآيات المتوالية المتناغمة تؤديه القواصل على أروع ما يكون الأداء حتى تفى بالمعانى المديدة فى إيجاز معجز .

١ - راجع تفسير الصابوني ج ٢ / ٤٧٦ .

ولما مات القاسم ابن النبي ﷺ قال بعض الكفار وهو العاص بن وائل : دعوه فإنه رجل أبتّر لاعقب له .

فأنزل الله سورة الكوثر يرد بها عن النبي ﷺ ليبين للناس أن العاص بن وائل هو الأبتّر المطرود من رحمة الله وإن كان له أولاد . بل إن المعنى يمتد ليشمل كل من يبغض الرسول ﷺ . فقال عز من قائل : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر إن شاتك هو الأبتّر ﴾ ، لاحظ الفواصل مع جمال النغم الظاهر من تسكين حرف الراء عند القراءة ، بل توافق الحروف التي تتألف منها الكلمات بحيث إذا قطعنا الآية الأولى منها تقطيعا عروضيا وجدناها تنفق مع تفعيلة بحر المتدارك : فعلن فعلن فعلن فعلن ، ولاحظ كذلك ملائمة الكلمات لأغراض السورة فكلمة الكوثر مثلا مما يحتمل التأويل ويستغنى عن الدليل ، وقد قيل إن معناها الخير الكثير ، وقيل إن الكوثر نهر من أنهار الجنة ، وقيل غير ذلك حتى بلغ ما ذكر في الكوثر ستة وعشرين قولاً ، ثم فعل الأمر (ضل) الذي يجمع كل مظاهر العبادة وكلمة (لربك) حيث اللام للالصاق والاختصاص و (رب) التي تدل على الربوبية والملكية وأنه صاحب النعم والخيرات الكثيرة والدنيا والآخرة مع إضافة كاف الخطاب وما فيها من تعظيم النبي ﷺ وفعل الأمر (انحر) حيث لا يكون النحر إلا للإبل وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم وفي هذا أداء حق الشكر الواجب للمنعم سبحانه وتعالى ، ثم ملاءمة ما بين شاتك والأبتّر وهي أيضا مما يحتمل التأويل فلا يقتصر المعنى على لعن العاص بن وائل الذي قال حين مات القاسم ابن النبي ﷺ : ﴿ دعوه فإنه رجل أبتّر لعقب له ﴾ فأنزل الله هذه السورة لبيان أن العاص بن وائل هو الأبتّر المطرود من رحمة الله

وإن كان له أولاد. بل إن المعنى يمتد ليشمل كل من يغض الرسول ﷺ.

ونستطيع أن نوجز مظاهر البلاغة في هذه السورة فيما تضمنته من وجوه البديع والبيان كما جاء في تفسير الصابوني فيما يلي :

١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم (إنا أعطيناك) ولم يقل أنا أعطيتك.

٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم (إنا) لأن أصلها إنا نحن.

٣ - صيغة الماضى المفيدة للوقوع (أعطيناك) ولم يقل : سنعطيك لأن الوعد لما كان محققا غير عنه بالماضى مبالغة كأنه حدث ووقع .

٤ - المبالغة في لفظة (الكوثر) .

٥ - الإضافة للتكريم والتشريف (فصل لربك) .

٦ - إفادة الحصر (إن شئت هو الأبر) .

٧ - المطابقة بين أول السورة وآخرها بين (الكوثر والأبر) حيث إن

الكوثر تعنى الخير الكثير، والأبر تعنى المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان منزل القرآن (١).

» هكذا تتجلى روعة البلاغة في القرآن العظيم في فواصل الآيات

١ - راجع تفسير الصابوني ج ٣ / ٦١٢ .

لا سيما سور المفصل ، حيث تأتى الآيات فيها قصيرة متوالية شديدة الإيجاز شديدة الوقع ، يتنوع فيها الأسلوب بين الترغيب والترهيب لتخلع الوثنية من قلوب العرب المشركين ، ولتثبت دعائم الإيمان فى صدورهم ، ولهذا نجد الإيجاز الشديد والمعنى المديد فى توالى الآيات القصار بحيث لا يتسنى لبشر أن يأتى بمثل سورة واحدة من قصار سوره ، ولا حتى بآية واحدة مثل آياته ، وليس معنى الكلام أن باقى القرآن من مدنيه ومكيه لا تظهر فيه البلاغة كسور المفصل ، فإن ذلك مالا ينكره أحد ولكن السور المكية تتميز فى الأغلب الأعم بهذا الإيجاز لمناسبة بداية الدعوة والتأثير فى نفوس العرب الموصوفين بالأنفة والإباء .

وإنك لتجد الجرس الموسيقى السريع القوى فى الكلمات البليغة المتلاحقة لتترك فى نفوس العرب ونفوس المتكبرين المكابرين من أى ملة أثرا عظيما ووقعا شديدا عند سماعهم لهذه الآيات الموجزة ذات المعانى المستفيضه ولعل ما فى ذلك التدافع فى الآيات القصيرة ذات النغم المتوافق الناجم عن تناسب الفواصل ما ينبه حواس السامع إلى الاستجابة لذلك الجرس والتفاعل معه والتأثر به ، (١) .

١ - د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى ، مراعاة النظر فى كتاب الله العلمى القدير ، دار المعرفة الجامعية ، باسكندرية سنة ١٩٩٧ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

الفواصل من خصائص النظم القرآنى

يقول الدكتور تمام حسان :

« حين سمع كفار قريش تلاوة القرآن لأول نزوله حاروا فى أمر نظمه . فلقد كانوا يعرفون من ضروب الكلام العربى لأيامهم الشعر والخطابة والسحر وسجع الكهان ولم يكن القرآن فى تراكيبه ولا فى أسلوبه يشبه واحدا من هذه الأضرب . ولكنهم لم يؤمنوا بأن هذا الطراز الفريد من النظم من وحى السماء فنسبوه إلى البشر منكبين مصدره الإلهى فكان عليهم وقد أنكروا ذلك أن يلحقوه بنوع من أنواع الكلام التى تقدم ذكرها . فنظروا فى خصائص تراكيبه وفى أسلوبه وفكروا فى أمره فلم يستطيعوا أن ينسبوه إلى الخطابة لاختلاف بينه وبينها فى الأسلوب والوظيفة ولأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بينهم خطيبا بما أنزل عليه من القرآن ، ولم ينسبوه إلى سجع الكهان لوضوح مقاصده وغموض السجع ولأنه ليس مسجوعا ولا يلتزم ذلك فى أسلوبه . بقى من أنواع الكلام فى عهدهم السحر والشعر . ولم يترددوا فى اتهام القرآن بنسبته إلى أحد هذين النوعين . أما السحر فقد راعهم أن القرآن حين هدى الله به من هدى من المؤمنين نأى بعضهم بدينه عن أهله وذويه وخاصم أهله وذويه تمسكا بدينه فرأى المشركون أن القرآن وقد فرّق بين المرء وأهله لا بد أن يكون سحرا لأن ذلك شأن السحر : « إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر » (المائدة ١٨-٢٥) كان هذا كيد الوليد بن المغيرة . أما كيد غيره من مشركى قريش فقد جاء بنسبة القرآن إلى الشعر لقد رأوا للقرآن فواصل

تنتهى بها آياته كما رأوا فيه مدحا وذما ووعدا ووعيدا وشيئا من الأغراض التى يرمى إليها الشعر ففرهم ذلك عما فى القرآن من أمور لا تكون فى الشعر كعدم الوزن وكطلب الهداية والدعوة إلى دين الله وما فى القرآن من تشريع ونحوه فانزلقوا إلى نسبة القرآن إلى الشعر على الرغم من ذلك. وهكذا نسب المشركون القرآن إلى السحر مرة وإلى الشعر مرة أخرى (١).

كان من اليسير دفع الشبهة الأولى عن القرآن لأن السحر لا يأتي للإصلاح ولا للدعوة ولا يكون بلغة واضحة بله تلك اللغة المعجزة التى نزل بها القرآن ثم إن السحر يفرق ولكن القرآن يوحد والسحر يهدم ولكن القرآن أنشأ عقيدة وشريعة وأقام خير أمة أخرجت للناس مادامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . كل ذلك كان من أثر القرآن الكريم وقد تم كله فيما لا يتجاوز عمر رجل واحد منهم فلقد كان عمر رضى الله عنه أحد من نصبوا أنفسهم لعداء الدعوة أول الأمر وقد كان عمر نفسه هو الذى تمت الفتوح فى عهده شرقا وغربا. لقد علم ذلك عامتهم كما علمه خاصتهم فانتفى عندهم ما زعمه الوليد من أن القرآن سحر . وأما دعواهم أن القرآن شعر فقد كان دفعها يتطلب معرفة بالفروق العديدة بين القرآن والشعر من حيث الصياغة والأسلوب والأغراض وقد كان خاصتهم يعرفونها أكثر مما يعرفها عامتهم ومن هنا نهض النص القرآنى برفض هذه الدعوى من جهة : « وما هو بقول شاعر » (الحاقة ٤١) ونفى صفة الشاعر عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى

١ - د/ تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآنى ص ٢٧٣ ، نشر عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

من خلال ذم بعض سلوك الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » (الشعراء ٢٢٤-٢٢٧) فهم يهيمون في كل واد يتكسبون بالشعر وهم يقولون مالا يفعلون حين ينسبون إلى أنفسهم مغامرات مع النساء أو بطولات ضد الأعداء لم تقع منهم ولا عرفوا بها. ولم يكن هذا من خلق النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرف طول عمره بالصادق الأمين (١) .

ونود الآن أن نذكر الفرق بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية . لقد تعود العربي أن ينظر إلى شطرات قصيدته فيجعلها أزواجا كل زوج منها بيت . والبيت عند العربي في الحقيقة خباء أو خيمة ، فكان القصيدة كانت في نظر الشاعر أشبه بمضرب من مضارب الخيام . وإذا كان للخيمة عمود فلا بد لبيت الشعر أن يقوم على عمود ولكن العمود نسب إلى الجنس ليعم كل أفرادها فقليل : « عمود الشعر » وكما تسقط الخيمة بإزالة عمودها ينهار البيت أو للقصيدة عند عدم رعاية عمود الشعر . ولعل من أشهر ما يعد من عمود الشعر الوزن والقافية . أما الوزن فقد مضى القول في الفرق بينه وبين الإيقاع القرآني وأما القافية فهنا مجال التفريق بينها وبين الفاصلة .

إن تقفية الشعر تعني تطابق خواتيم الأبيات من الناحية الصوتية وقد جعل الالتزام بالقافية جزءا من عمود الشعر الذي لا يكون الشعر شعرا

١ - المرجع السابق ص ٢٧٤ .

إلا به - وفي القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه في الأذن ولا يتطابق بالضرورة في الحرف . فحين سمع المشركون هذه الفواصل ولحوا تشابه أجراسها غرتهم عن ملكاتهم وأذواقهم فربطوا بينها بالباطل وبين تقفية الشعر ثم ادعوا لأدنى ملابسة أن القرآن قول شاعر ومن هنا جاء الرد القرآني عليهم ليقول لهم : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ (الحاقة ٤١) إن من يتأمل الفاصلة القرآنية ليجد الفارق كبيرا بينها وبين قوافي الشعر (١) .

ومن يقرأ كتاب الله عز وجل من أوله إلى آخره يجد أنه لم تخل سورة من سور القرآن من الفواصل التي هي كالأسجاع حتى ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وسورة الكوثر وغيرها ، وهذه الفواصل القرآنية تجمع حسن النظم مع عذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وحسن الدلالة فتأتي الفاصلة كالعاقدة للمعاني ... فهي كالبراعم للنباتات، والأكمام للشجر، والبصمة للبنان .

ولما كان القرآن قد نزل بأفصح أساليب الكلام العربي فقد جاءت فواصل الآيات بإزاء ورود الأسجاع في كلامهم ، ولكنه لم يجيء كله على أسلوب واحد، لأنه لا يحسن في الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد، ولهذا نجد التنوع في الفواصل على مدار السور كما نجد التنوع في الفواصل أيضا داخل بعض السور، وهذا التنوع يأتي لغرض إتمام المعاني بحسب ما يقتضيه السياق في الآية وليس لإتمام التسجيع ولهذا قلنا إن الفاصلة تكون كالعاقدة للمعاني أي أنها تجمع

المعنى لما قد سبقها من الكلام فى الآية إذ ليس الغرض الأساسى منها
تقفية السجع ، ولذلك نجد الآيات فى سورة البقرة مثلا تنتهى فواصلها
بحرف من حروف المدمع النون أو المدمع الميم فى الأغلب الأعم لكن
تتخللها آيات بالدمع الراء أو المدمع الدال أو المدمع اللام أو المدمع الياء ،
إذ المعنى هو المقصود ، فلا تكون زينة الكلام بالسجع على حساب المعنى
، فليس فى تقفية الفواصل فى القرآن تكلف ولهذا وردت بعض آى
القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل . فالفاصلة تأتى متناسبة مع
المعنى تماما بحيث لا يستطيع إنسان مهما أوتى من الفصاحة والبيان أن
يحركها من مكانها ويأتى بغيرها ، وفى هذا إعجاز للبشر جميعا أيما
إعجاز .

الفواصل من ضروب الإعجاز البلاغى فى القرآن :

يظهر معنى الإعجاز البلاغى للقرآن فى أنه يبدو واضحا فى التفوق على كل معانى البلاغة التى تعارف عليها العرب الفصحاء بحيث يستحيل على أحد أن يأتى بمثله أو بما يدانيه ، وقد سأل المفضل الضبى أحد الأعراب فقال له : ما البلاغة ؟ قال الأعرابى : « الإيجاز فى غير عجز ، والإطناب فى غير خلل » (١) ، كما سئل الأحنف : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز فى استحكام الحجج ، والوقوف عند ما يكتفى « به » (٢) . كما قال خالد بن صفوان : « خير الكلام ما ظرفت معانيه ، وشرفت مبانيه والتذت به أذان سامعيه » (٣) .

مثل هذه الكلمات تدل على مدى الفهم العظيم لدى العرب للغة ، وأنهم لما ظهر عجزهم عن محاكاة الآيات التى جاء القرآن بها ، قامت الحجة على العالم بالعرب الذين ملكوا أزمّة الفصاحة .

ذكر القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ هذه الآية « فلما استياسوا منه خلصوا نجيا » فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .. ذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس ، وانفرادهم من غيرهم وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، فتضمنت تلك الآية القصيرة معانى القصة

٢٠١ ، ٣ - ابن عبد البر القرطبى ، بهجة المجالس وأنس المجالس وشعذ الذهن والهاجس ، القسم الأول ص ٧١ . بتحقيق محمد مرسى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

وقد حكى العلامة القرطبي عن الأصمعي أنه قال :

سمعت جارية أعراية تنشد :

استغفر الله لذنبى كله قتلت إنسانا بغير حله
مثل الغزال ناعما فى دله انتصف الليل ولم أصله

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ١٩

فقلت ويحك أو يعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافي ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فقد جمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وشارتين (٢) .

« قال الرماني : وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة ، مع توفر الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والإخبار عن الأمور المستقبلية ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة . قال : ونقض العادة هو أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنشور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة ، وتفوق الموزون الذى هو أحسن الكلام . قال : وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ؛ إذ كان سبيل فلق البحر وقلب العصا حية ، وما

١ - الصابوني ، صفوة التفسير ، ج ٢ ص ٦٦ .

٢ - تفسير القرطبي ٢٥٢ / ١٣ و صفوة التفسير للصابوني ج ٢ / ٤٢٩ .

جرى هذا المجرى فى ذلك سبيلا واحدا فى الإعجاز، إذ خرج عن العادة،
وقعد الخلق فيه عن المعارضة .

وقال القاضى عياض (١) فى الشفاء : اعلم أن القرآن منطوق على
وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة
وجوه :

أولها : حسن تأليفه والتشام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه ،
وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام، وأرباب هذا
الشان ، (٢) .

الثانى : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب ، المخالف
لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونشرها الذى جاء عليه، ووقفت
عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده
نظير له . قال : وكل واحد من هذين النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها،
والأسلوب الغريب بذاته، نوع إعجاز على التحقيق ، لم تقدر العرب على
الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد خارج عن قدرتها ، مبين لفصاحتها
وكلامها ، خلافا لمن زعم أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب .

الثالث : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ، فوجد
كما ورد .

١ - هو القاضى عياض بن موسى بن عياض اليمصى الأندلسى ، صاحب كتاب الشفاء بتعريف
حقوق المصطفى ، وغيره وامام وقته ف بالحديث وعلومه ، توفى سنة ٥٤٤ هـ . الدياج
المذهب ١٦٨ .

٢ السيوطى ، الإتقان فى علوم القرآن ج ٤ / ١٨ .

الرابع : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأُمم البائدة، والشرائع الدائرة؛ مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نصه ؛ وهو أُمى لا يقرأ ولا يكتب.

قال : فهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لانزاع فيها. ومن الوجوه فى إعجازه غير ذلك أى وردت بتعجيز قوم فى قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود : ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ * ولن يتمنوه أبدا ﴿ (١) ، فما تمناه أحد منهم ، وهذا الوجه داخل فى الوجه الثالث .

ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التى تعتر بهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور، قال : فلما بلغ هذه الآية ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ إلى قوله ﴿ المَسيطرون ﴾ (٢) . كاد قلبى أن يطير . قال : وذلك أول ما قرأ الإسلام فى قلبى . وقد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف .

ثم قال : ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية ، لا يعلم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه ، (٣) .

١ - البقرة ٩٤ ، ٩٥ .

٢ - الطور ٣٥ - ٣٧ .

٣ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٤ / ١٩٦ .

وقد طرحت قضية الفواصل القرآنية أمام العرب موضوعات جديدة لم يكن لهم بها علم من قبل ، ولم تخطر لهم على بال ذلك أن الفاصلة في حد ذاتها إحكام لما قد سبقها من الكلام في الآية بخلاف السجعة التي قد يتكلفونها لإظهار البراعة والفصاحة، ثم إن توالى الفواصل بما تحدثه من موسيقى ظاهرة، وبما تقوم به من ربط وإحكام بين الكلام ، وما تضيفه من معان مقصودة سواء على المستوى القريب أم المستوى البعيد، بحيث لا يستطيع أحد مهما أوتى من قوة الفصاحة وحسن البيان أن يقترح تغيير لفظة أو زيادة حرف مع أن ذلك جائز في كلامهم ، كل ذلك أبرز معنى الإعجاز، فتجد جمال الأسلوب وقوة العبارة في كل آية من آيات القرآن تحكمها الفواصل مسببة جمال الإيقاع الذى يهز الوجدان ويدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

كما أن توالى نزول القرآن على مدى الثلاث والعشرين سنة على نمط فريد فى النظم والإحكام والانسجام بين الكلمات والصور شئ كان يبههم ويظهر عجزهم أمامه .

من أسرار الإعجاز فى الفواصل

١ - المزاجية بين الفواصل :

قال أبو هلال العسكري فى كتاب الصناعتين :

لا يحسن منشور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجا (١) ، ولا تكاد تجد لبلّغ كلاما يخلو من الأزواج ، ولو استغنى كلام عن الأزواج لكان القرآن ؛ لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الأزواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما تزوج فى الفواصل منه . كقول الله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٢) . وقوله عز وجل : ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطّيع على قلوبهم ﴾ (٣) . وقوله تعالى : ﴿ ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ (٥) . إلى غير ذلك من الآيات .

وأما ما زوج بينه بالفواصل فهو كثير . مثل قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ وإلى ربك فارغب ﴾ (٦) . وقوله سبحانه : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ وأما السائل فلا تنهر ﴾ (٧) . وقوله عز وجل : ﴿ والعصر ﴾ إن الإنسان لفى خسر ﴾ . وقوله جل ذكره : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ (٨) ؛ وهذا من المطابقة التى لا تجد فى كلام

-
- | | |
|-------------------------|----------------------|
| ١ - ج : « إلا أن يكون » | ٢ سورة الأنعام ١ |
| ٣ - سورة الأعراف ١٠٠ . | ٤ سورة البقرة ٢٦٧ |
| ٥ - سورة البقرة ٢١ | ٦ الشرح ٨٠٧ |
| ٧ - سورة الضحى ١٠ ، ٩ | ٨ سورة النجم ٤٣ ، ٤٤ |

الخلق مثلها حسنا ولاشدة اختصار؛ على كثرة المطابقة في الكلام. وكذلك جميع ما في القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة ... ألا ترى قوله عز اسمه : ﴿ والعاديات ضبحا ﴾ فالموريات قدحا ﴾ فالمغيرات صبحا ﴾ فأثرن به نقعا ﴾ فوسطن به جمعا ﴾ قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجري ، من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والقرض ، والغمر والبرض (١). ومثل هذا الكلام مذموم لما فيه من التكلف والتعسف (٢) .

ولم يعرف أبو هلال العسكري هنا معنى المزوجة ، واكتفى بالأمثلة التي عرضها ليستشعر القارئ في نفسه المعنى الذي يذهب إليه والذي أراه أن المزوجة التي يقصدها هي اتفاق فاصلتين أو أكثر في الحرف الأخير أو الحرفين الأخيرين . أما المزوجة عند المتأخرين من البلاغيين فإنها مفهوم آخر غير مفهوم أبي هلال وهو أن يتزواج بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحري :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكّرتِ القربى ففاضت
دموعها . (٣)

١ - والبرض : القليل وهو خلاف القمر .

٢ - أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) ، كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، ص ٢٦٦ ، ص ٢٦٧ ، بتحقيق علي محمد البيجاي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي « الطبعة الثانية » .

٣ - انظر : بنية الإيضاح لتلخيص للفتاح ، لعبد التعال الصميدى ج ٤ / ٢٢ ، طبع مكتبة الآداب ، الطبعة السابقة ١٤١٠-١٩٩٠ .

وهذه المزاجية بين فواصل الآيات أمر لا يطيقه بشر بحال من الأحوال مهما أوتى من البلاغة والفصاحة . ناهيك عن التلاؤم الحادث بينها وبين الألفاظ في الآيات والتناسب بينها وبين الفواصل المتجانسة معها مع شرف المقاصد والمعاني المطلوبة وسواء كانت تعرض للتشريع أم للقصة أم للأمر والنهي أم للوصف أم للترغيب والترهيب .

واقراً إن شئت في ذلك سورة القمر وهي من السور المكية التي عالجت أصول العقيدة الإسلامية فتناولت المعجزة الكونية في انشقاق القمر، ثم انتقلت إلى الحديث عن أهوال القيامة وشدايدها، ثم الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، واختتمت بإنذار قريش وحذرتهم مصرعاً كهذه المصارع التي لحقت بالكفار الذين كذبوا الرسل بل سيكون لهم ما هو أشد وأنكى ، كل ذلك في خمس وخمسين آية ، يتحقق فيها السجع الرصين حيث تتفق جميعها في حرف الراء الساكن مع المزاجية الرائعة في مثل قوله تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر * إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

كما نجد سورة الكهف على مدى المائة والعشر آيات التي تضمنتها تلتزم الفواصل فيها الألف المدية في نهاياتها مع التنوع في حرف الروى .

وسورة الشمس وما فيها من السجع المرصع حيث تتفق جميع آياتها الخمس عشرة في أواخر حروفها بالألف المدية ثم الهاء ثم ألف المد أيضاً محققة النغم الموسيقي الرائع ، مع ما تتضمنه من جلال المعنى حيث يقسم المولى عز وجل بسبع آيات كونية ظاهرة للعيان على أن الفلاح لمن

تزكى والخسران لمن طغى وبغى واتبع نفسه هواها ويقص علينا قصة الناقة كمثال لهذا المعنى ، هذا مع ما فيها من الصبغ البديعى الذى يزيد النغم حلاوة والمعنى طلاوة كالطباق بين الشمس والقمر والليل والنهار وفجورها وتقواها ، ثم المقابلة اللطيفة مع المزوجة بين (والنهار إذا جلاها) ، (والليل إذا يغشاها) وبين (قد أفلح من زكاها) و (قد خاب من دساها) .

وتجد ذلك واضحا جليا أيضا فى سورة الليل التى تحدثنا عن سعى الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله فى هذه الحياة ثم نهايته الأكيدة إلى النعيم أو إلى الجحيم حيث تبدى لنا فى فواصل آياتها الإحدى والعشرين والتى تتفق جميعها فى الاختتام بالألف المدية أو القراءة مع الإمالة ، والمزوجة فى الآيات :

مثل (والليل إذا يغشى) و (والنهار إذا تجلّى)

ومثل (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)

(وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

٢ - تناسب الفواصل :

نجد دائما في كل فاصلة من فواصل الآيات أن يختم الكلام بما
بتناسب مع أوله في المعنى * .. كقوله تعالى ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) . فقد ختمت الآية بما
يناسب أولها، إذ « اللطيف » يلائم « لا تدركه » الأبصار، و « الخبير »
يلائم « وهو يدرك الأبصار » ، لأن من يدرك الشيء يكون خبيرا به ..
ومنه قوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لَهُو
الغنى الحميد ﴾ (٢) . ، فإن الذي يملك ما في السموات وما في
الأرض يكون غنيا عن كل ما عداه، ولما كان ما في السموات وما في
الأرض مخلوقا لمنفعة العباد، كان الخالق المنعم مستحقا للمحمد من المنعم
عليهم .. ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) ، لأن الذي أنعم هذا الإنعام
سخر ما في الأرض، ومن يفعل ذلك يكون رعوفا رحيمًا بعباده .. وما
يروى أن أعرابيا سمع قارئًا يقرأ قول الله عز وجل : ﴿ فَإِنْ زِلْتُمْ مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) ، فوضع
القارئ : « غفور رحيم » مكان : « عزيز حكيم » قائلا : « فاعلموا أن
الله غفور رحيم » ، فقال الأعرابي، ولم يكن يقرأ القرآن : إن كان هذا
كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه .

* راجع كتاب علم البديع للدكتور بسيوني عبد الفتاح بسيوني .

- ١ - سورة الأنعام آية ١٠٣ .
- ٢ - سورة الحج آية ٦٤ .
- ٣ - سورة الحج آية ٦٥ .
- ٤ - سورة البقرة آية ٢٠٩ .

فختام الآية بالعزة والحكمة يناسب ذكر الزلزل بعد وضوح الحق وتبيينه ... وروى أن الرسول ﷺ ، كان يحلى على زيد بن ثابت قوله تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر» (١) وهنا قال أحد الصحابة: «فتبارك الله»، فابتسم النبي ﷺ ثم قال: «بها ختمت» وختام الآية الكريمة «فتبارك الله أحسن الخالقين» .. وورد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ قوله تعالى: «وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر» (٢)، فقرأها القارئ بفتح الكاف، فقال الأعرابي: لا يكون، فلما قرأها القارئ بضم الكاف وكسر الفاء قال الأعرابي: يكون ..

« هذا وقد يكون التناسب بين ختام الآية وبين ما ذكر في أولها دقيقا خفيا، لا يدرك إلا بالتأمل وإطالة النظر، على نحو ما نرى في قوله تعالى: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» (٣) فإن قوله: «وإن تغفر لهم»، يوهم أن الفاصلة «الففور الرحيم»، ولكن عند التأمل وإمعان النظر يتضح أن الفاصلة ينبغي أن تكون ما عليه النظم الكريم لأنه لا يقدر على تعذيب من يشاء، والغفران لمن يشاء من عباده إلا العزيز الذي لا يغالب، وهو عندما يفعل ذلك ففى

١ - سورة المؤمنون آية ١٤ .

١ - سورة القمر آية ١٣ ، ١٤ .

٢ - سورة المائدة ١١٨ .

فعله الحكمة وإن خفيت تلك الحكمة على بعض خلقه لأن الحكيم من يضع الشيء في محله ، والله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة فكان الوصف بالحكيم احتراسا حسن ، فالمناسب إذا هو أن تختتم الآية بما ختمت به « (١) ومن ذلك قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم » (٢) « فالتبادر إلى الذهن أن تختتم الآية بالقدرة : « وهو على كل شيء قدير » ، ولكن عند تأمل النص الكريم وإمعان النظر في سياقه يظهر ويتضح أن المناسب هو ما ختمت به الآية « وهو بكل شيء عليم » لأن تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوى والسفلى وغير ذلك من الإحياء والإماتة ثم الإحياء ، كل هذا يدل على صدور تلك الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء... (٣) وكذا القول في قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير » (٤) ، فإن النظرة العجلى فى الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة « وهو بكل شيء

١ - راجع د. بسيوني عبد الفتاح بسيوني ، علم البديع ، دراسة تاريخية وفقية ، ص ٣٤ .

٢ - سورة البقرة ٢٨ ، ٢٩ .

٣ - انظر البحر المحيط ، ج ١ / ١٢٦ .

٤ - سورة آل عمران ٢٨ ، ٢٩ .

عليم » ، ولكن إمعان النظر وإطالة التأمل في سياق النظم الكريم يتضح أن المناسب هو ختم الآية بالقدرة ، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يكون إلا بزعم المتخذ أن الكافر يملك ويقدر على ما لا يقدر عليه المؤمن من نفع ، ولذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين ويبيّن لهم أن إليه مصيرهم ، وأنه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما في السموات وما في الأرض وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم ، فينبغي على المؤمن أن يلجأ إلى قدرته تعالى وأن يستظهر بها ، وألا يوالى أعداءه الكافرين ، إذ لا قدرة لهم على نصره ، وإنما القادر هو الله... وبهذا يتضح أن ختم الآية بالقدرة : « والله على كل شيء قدير » هو المناسب لسياق النظم الكريم ... إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدق فيها المناسبة ، وتخفى على النظرة العجلى ، وتحتاج إلى إطالة التأمل وإمعان النظر (١) .

١ - راجع ، د بيوني عبد الفتاح ، علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ص ٣٥ .

٣ - التمهيد للفواصل بالفاظ تمهد لوقوعها :

وذلك يسميه أهل البلاغة برد الأعجاز على الصدور وقد قسمه ابن المعتز ثلاثة أقسام : (١)

(أ) توافق آخر الفاصلة ، وآخر كلمة في صدر ما قبلها ، ومثل له بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (٢) ، ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾ (٣) ، ﴿ قل الله أسرع مكرا ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ (٤) .

(ب) توافق الفاصلة ، وبعض كلمات الصدر في الوسط نحو قوله تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسلك من قبلك . فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٥) ، ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

(ج) توافق الفاصلة وأول كلمة في صدر ما قبلها ﴿ وهب لنا (٧) من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ﴾ ، ﴿ قال انى لعمركم من القالين (٨) ﴾ ولا خفاء فى أن هذه الآيات صدورا وأعجازا - فوق ما تحتل من معانى التقرير والجزم - تترقق فيها موسيقى عذبة مطردة

١ - د/ أحمد فتحى عامر، فكرة النظم بين رجاء الإعجاز فى القرآن الكريم ، ص ٢١٧ طبعة

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والسنة القاهرة ١٣٩٥ - ١٩٧٥ .

٣ - سورة النساء آية ١٦٦ .

٢ - سورة البقرة آية ١٦ .

٥ - سورة الأنعام آية ١٠ .

٤ - سورة يونس آية ٢١ .

٧ - سورة آل عمران آية ٨ .

٦ - سورة الإسراء آية ٢١ .

٨ - سورة الشعراء آية ١٦٨ .

يأخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إذا بلغت مداها بالفواصل ، وقعت على قرار مكين أضفى على سامعه دعة ونشوة وبشاشة كان يتطلبها ، و يترقبها ، فلم تخلف ظنه فيها . (١)

١ - د/ أحمد فتحي عامر ، فكرة النظم .. ص ٢١٧ .

٤ - تكرير الفواصل في بعض السور :

نحو قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ في سورة الرحمن ،
و ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ في سورة المرسلات .

وقد كررت ﴿ فبأى آلاء ... ﴾ لأن الله - سبحانه - عدّد في
السورة نعماءه وذكّر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرها ، وقدرته عليها ،
ولطفه فيها وجعلها فاصلة بين كل نعمة ، ليعرف موضع ما أسداه إليهم
منها ثم فيها - إلى ذلك - معنى التقريع والتوبيخ ، فإن تعديد الآلاء من
الرحمن تبكيت لمن أنكرها ، كما يبكت من ينكر أيادي الناس عليه ،
بتعدد النعم له .

ونضيف إلى ما سبق أن سورة الرحمن على اعتبار أنها من السور
المدنية قد خرجت عن طابع الأسلوب المدني الهادئ النفس ، الطويل
الآيات الذي يقرر ويشرح ، ويضع المبادئ الصالحة للزمان والمكان
وخروجها عن طابع الأسلوب المدني بخصائصه التي ذكرت لتخاطب
الإنسانية في مداها الطويل حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فالإلحاد سيظل ثابت الدعائم على هذه الأرض ، ولا بد له من زاجر
يزجره ، ومدى ينتهي إليه ، فكانت سورة الرحمن المدنية على هذا النمط
الموسيقى الخالد آية تبصرة تحذ من سيطرة المادية البشعة وصراطا للترغيب
والترهيب . (١) ،

كما نجد التكرار أيضا في الآية ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ في سورة

١ - د/ أحمد قحى عامر ، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، ص ٢١٨ .

المرسلات المكية حيث تبدأ بعاصفة مزمجرة وتقسم قسما غليظا على أن ما يوعد به الكفار حائق بهم لامحالة، ثم تذكر اليوم الآخر وفيه تطمس النجوم، وتفرج السماء، وتنسف الجبال، والهلاك كله لهؤلاء الذين كذبوا باليوم الآخر وما فيه، وتظل على هذا النمط، تهدد وتتوعد وتضرب الأمثال للكاذبين بمن سبقهم من المهلكين، وتقف عند كل موقف، لتختمه به « ويل يومئذ للمكذبين » فإذا تعرضت لموقف المؤمنين وجزائهم في الآخرة، حيث الظلال والعيون، وفواكه مما يشتهون، والشرب الهنيء، والجزاء العظيم، قفل الموقف بقوله « ويل يومئذ للمكذبين » ثم عادت السورة أدراجها للحديث عن الكافرين في تسلسل موسيقى عنيف، يصح أذان الكفار، ويزلزل خواطرهم ويتركهم في بحر لجي من التفكير في ذات الله، فيظل الالحاد في الإنسانية واقفا عند حد، لا يتجاوزه إلى التغفل في أعماقها، وتظل الإنسانية نفسها على حذر من الوقوع في يرثن الشهوانية المادية التي تفتك بسلامة الروح.

« وكان هاتين الفاصلتين - سورة الرحمن والمرسلات - ولله المثل الأعلى، قفلة توضيحية، أو قافية شعرية إضافية تريح نفس القارئ من البهر، وترشده إلى إجداد الوقف وتلون الصوت.

ثم هما تحكمان الربط بين الآيات السابقة واللاحقة، وتسوقان أنغامهما المتسلسلة إلى نهاية تتوحد عندها.

ولا شك أن هذه الفاصلة في صورة الرحمن وهي من السورة المقرؤة كثيرا - قد زادت من روعة التلاوة بما خلعت عليها من إيقاع محبب بهيج، وأمدت القراء بألوان من التنغيم المؤثر الأخاذ، نراه يستثير مشاعر السامعين، ويحدوهم - بلا وعى - إلى ترديد هذه الفاصلة مع

القراء فى خشية غامرة وخشوع عميق ، (١) .

٥ - الربط الفنى فى الفواصل :

ومن الأسرار المجيبة هذا الإحكام الفنى بين الفواصل ذلك الربط العضوى بين الألفاظ والمعانى ، وهو النسق الذى يلتزمه القرآن فى جميع الآيات ونذكر من أمثله :

أ - زيادة حرف كهاء السكت :

محافظة على التنغيم الموسيقى وتكاملا للمعنى ، حتى إذا قرأ القارئ « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية »

أحسن ذلك التسلسل ، ولم يستشعر نبوا فى كلمة ، أو قلعا فى تعبير ولو فرضنا أن الآية قرئت هكذا : « وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية » لأحس القارئ بشقل فى نطق الآية التى حذفت منها هاء السكت وتعجب من نفسه ! لم كانت الآية هكذا ؟ وليتها لحقتها الهاء والذين يشغلون أنفسهم بدراسة الموسيقى ، وتذوقها يقفون عند حذف الهاء وقفة طويلة ، فإذا ألحقوا الهاء بالآية انحدر النغم فكان شاجيا للأسماع .

ب - تكرار بعض الحروف لغرض الملازمة :

ومن هنا كررت « لعل » فى قوله تعالى « لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » (٢) إذ لو لم تكرر لحذفت النون من آخر

١ - المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

١ - سورة يوسف الآية ٤٦ .

الفعل وذلك لا يتمشى مع النسق ، ولا ينسجم مع بقية الفواصل

جـ - الحذف

وحذفت الياء فى قوله تعالى ﴿ والليل إذا يسر ﴾ لهذا السبب نفسه ،
واقراً الآيات متكاملة تدرك هذا السر فى مجال الإعجاز ﴿ والفجر وليال
عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذي
حجر ﴾ (١) ولو ذكرت الياء لكنت كالنغمة النشاز

د - الجمع بين المجزورات

وجمع بين المجزورات فى قوله ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به
تبيعا ﴾ (٢) لتناسب الآية ما قبلها وما بعدها ، ويتم الربط الفنى
بالفاصلة حتى تتناسق على صورة واحدة . (٣)

ولم يكن هذا الربط الفنى فى الفواصل على حساب المعنى ، بل
كان مقوريا إياه مبرزاً له ، فلم يكن هناك ضعف تأليف فى توالى المجزورات
ولا نقل فى النطق ، بل كان هناك تلوين موسيقى تردده من خلاله المعنى
، فالموسيقى فى « لكم » غيرها فى (علينا) غيرها فى (به) وهى
متصلة فى ارتفاع وانخفاض . وإذا أمعنا النظر فى المجرور وهو
(لا تجدوا) والمجرور الثالث وجدنا أنه ملتصق بـ (تبيعا) وبقي المجرور
الثانى (علينا) مستريحاً بين صاحبيه

هى عملية بناء هندسى إذن ، كل كلمة فى مكانها لخصيصة

١ سورة الفجر من ٥

٢ سورة الإسراء آية ٦٩

٣ د/أحمد فتحي عامر فكرة النظم بين حروف الإعجاز فى القرآن الكريم . ص ٢٢

دقيقة تدرك سرها العقول تارة ، وتعجز عنها تارات .

هـ - تأخير ما أصله أن يقدم :

كقوله تعالى ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ (١) فتأخير
الفاعل على غير ما ترسمه قواعد النحو ، إلا لأمر فنى هو ما يقولون : ان
النفس تشوق لفاعل « أوجس » فإذا جاء بعد أن أخر وقع
بموقع « (٢) .

و - العلول عن صيغة المضى إلى صيغة الاستقبال :

كقوله تعالى ﴿ ففريقا كذبتهم وفريقا تقتلون ﴾ (٣) حيث لم يقل
« وفريقا قتلتم » كما سوى بينهما فى سورة الأحزاب فقال « فريقا
تقتلون » ، وتأسرون فريقا (٤) « لأنها رأس آية ، يتم بها النسق ، ويتكامل
المعنى الذى يأخذ سبيله إلى النفس (٥) .

٦ - رعاية الفواصل : (٦)

وشىء آخر نصر على أن نبرزه ، وهو رعاية الفواصل ، التى تتكامل
من خلالها المعانى ، وتتجسد ، ونحس فيها الإعجاز فسمو القوالب من
سمو المدلولات وسمو المدلولات من سمو القوالب ، والمعنى الشريف هو

١ - سورة طه آية ٦٧ .

٢ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ١ ص ٦٠ .

٣ - سورة البقرة آية ٨٧ .

٤ - سورة الأحزاب آية ٢٦ .

٥ - د/ أحمد فتحى عامر ، فكرة النظم ص ٢٢٣ .

٦ - د/ أحمد فتحى عامر ، فكرة النظم بين وجه الإعجاز ص ٢٢٠ .

الذى يلبس اللفظ الشريف كما يقول القدماء، ولو لم تراع الفواصل لحدث الخلل وسأقص عليك الآيات ﴿ قال : بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ فلو غير النظم هكذا « قال : بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، (فأوجس موسى خيفة في نفسه) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى » .

ألا تقف عنده موقف المتردد الذى يكاد يمسك بقلمه ، ليعيد الآية كما أنزلت عليه؟

والفكر والذوق يعينان صاحبهما على بلوغ هذه المنزلة ، أخرج ابن أبى حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت ، قال : أُملى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا (١) المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ فقال معاذ بن جبل : « تبارك الله أحسن الخالقين » فضحك رسول الله ، فقال معاذ : مما ضحكك يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت (٢) .

٧ - تحقيق التناغم والإيقاع المناسب :

ولوحظ لذلك فى الفواصل :

١ - أنها أكثر ما تختتم بحروف المد واللين ، والحق النون ، وحكمته

١ - سورة المؤمنون آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

٢ - السيوطى ، الاتقان ج ٢ / ١٧٠ .

وجود التمكن من التطريب بذلك .

وسيؤيه يقول : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والباء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وقد جاء في القرآن على أسهل موقف ، وأعذب مقطع .

٢ - حروف الفواصل اما متماثلة ، كقوله تعالى ﴿ والطور وكتاب مسطور في رق منشور، والبيت المعمور ﴾ (١) .

أو متقاربة ، كقوله سبحانه ﴿ الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴾ (٢) ، ﴿ ق . والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم مندر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ (٣) .

وبناء الفواصل على هذه الحروف التي تبض بالتطريب والغنة ، ثم برعاية التماثل والتقارب بينها استكملت أداة الغناء وتم لها الإيقاع من غير توقيع ، وأصبحت - كما يقول الرافعي (٤) :

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورتان للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا ، يلائم نوع الصوت ، والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، ونراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما

١ - سورة الطور آية / ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

٢ - سورة الفاتحة آية / ٣ ، ٤ .

٣ - سورة ق آية / ١ ، ٢ .

٤ - الرافعي ؛ إحصاء القرآن .

الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها، أو بالمد وهو كذلك طبيعى فى القرار، فان لم تنته بواحدة من هذه ، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة، وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق ، بما هو أشبه به ، وأبقى بموضعه ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القفلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى . (١) .

ولا تقتصر أسرار الاعجاز فى الفواصل على ما ذكرنا ، فذلك بحر خضم ليس لنا للوصول إلى قراره من سبيل ، وإنما هى أمثلة نسوقها دلائل واضحة على أن السجع أو الفاصلة قالب معجز (٢) .

قال الشيخ محمد على الصابونى :

مراعاة الفواصل وهى من خصائص القرآن ﴿ وقالوا مالنا لانرى رجال كما نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخرى أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (ص ٦٢ - ٦٤) . فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب يسرى فى النفس سريان الروح فى الجسد ، وأقسم بالله أننى أشعر بهزة فى نفسى كلما قرأت القرآن لما له من وقع عذب على السمع ، وأحيانا أجدنى أتمايل طربا بدون شعور، أكثر مما يتمايل المغرمون بالأنغام وما ذلك إلا لروعة البيان فى هذا القرآن وصدق رسول الله حين قال : ﴿ إن من البيان لسحرا ﴾ (٣) .

١ - د/ أحمد فتحى علمر ، فكرة النظم ، ص ٢١٦ - ٢٢٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

٣ - محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣ ص ٦٧ .

وبعد : « فإن الفواصل في القرآن الكريم ذات أهمية عظيمة في بلاغة القرآن الكريم ، فهي محك القدرة ، كما أن القافية - وللمولى سبحانه وتعالى المثل الأعلى - محك قدرة الشاعر ، ففي بعض الأحيان نجد أن القليل من الشعراء يضطرون إلى القافية اضطراراً ، ليحيثوا بها مكملة للبيت ، ولو ذهبنا نبحث لها عن معنى ، وليس في فواصل القرآن الكريم فاصلة واحدة جاءت لإكمال الآية إكمالاً معيناً ، بل لكل فاصلة سرها البلاغي ، فالبليغ لو رفع كلمة « واحدة من القرآن الكريم » وأدار لسان العرب على أن يأتي بأخرى تسد مسدها لأعياء ذلك .

وللقرآن الكريم مسحة خلافة عجيبة ، تتجلى في نظامه الصوتي ، وجماله اللغوي ، ويراد بنظام القرآن الكريم الصوتي اتساق القرآن الكريم ، واختلفه في حركاته وسكناته ، ومداته وغماته ، واتصالاته وسكناته ، اتساقاً عجبياً ، واختلفاً رائعاً ، يسترعى الأسماع ، ويستهوى النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر ، منظوم أو منثور .

ويراد بجمال القرآن الكريم اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن الكريم ، في رصف حروفه ، وترتيب كلماته ترتيباً يتضاءل دونه كل ترتيب ونظام ، تعاطاه الناس في كلامهم .

ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل شيء من كلام الناس في القرآن الكريم لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه ، واختل نظامه في آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا النظام الصوتي ، وذاك الجمال اللغوي ، أنهما كانا دليل إعجاز من ناحية ، وكانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن الكريم من ناحية أخرى ، ذلك أن من شأن النظام الصوتي ، والجمال اللغوي أن

يسترعيا الأسماع، ويشيرا الانتباه، ويحركا داعي الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم .

وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسن الخلق، وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم ، فلا يجرو أحد على تغييره أو تبديله، وذلك مصداقاً لقول المولى تبارك وتعالى في محكم آياته : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : ٩ .

إن الارتباط بين الفواصل والآيات التي سبقت من أجلها، يدل على مدى التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً يستقر في النفس ، وتتقبله أعظم قبول .

وقد يُظن في بعض الأحيان أن الآية تهىء لفاصلة بعينها، ولكن القرآن الكريم يأتي بغيرها، إثارة لما هو ألصق بالمعنى ، وأشد وفاء بالمراد .

وهذا الارتباط قد يكون واضحاً من أول وهلة ، وقد يحتاج إلى تروٍّ ودقة وإمعان، ولقد أشار « الفخر الرازي » إلى هذا، حيث قال « ما من حرف، ولا حركة في القرآن الكريم ، إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً » (١) .

١ - محمد رجاى حنفى ؛ مقال بعنوان : الفواصل أحد مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ، ص ٤٧ من مجلة الوعي الإسلامى العدد ٣٨٨ (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) .

الفصل الثالث

الدرس البلاغى للفواصل القرآنية

وفيه :

- توطئة .
- مستويات الدرس البلاغى للفواصل .
 - * المستوى اللغوى .
 - * المستوى الدلالى .
 - * المستوى الصوتى .

الدرس البلاغى للفواصل القرآنية

توطئة :

لقد جاء القرآن الكريم مفصلاً بالفواصل ليعجز العرب الذين برعوا فى تزيين الكلام بالأسجاع ، وتوشيح العبارات بالكلمات المتماثلة فى النطق المؤدية للمعانى ، فوجدوا فيه ما ييسر الأسماع ، ويأخذ بمجامع القلوب ، بحيث تتقاصر عن بلوغ معانيه قرائحهم ، وتراجع أمام فواصله بلاغتهم وتتفاوت إزاء حقيقة بيانه أفهامهم ، فهو القول الفصل وما هو بالهزل . ولقد صدق ربنا حيث قال : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ .

فأله هو الذى ألهم الإنسان النطق وميزه ؛ عن سائر الحيوان والعرب اتخذوا من الكلام صناعتهم حيث لم يكن لهم صناعة يسرعون فيها غيره ، فكانت المناظرات فى أسواق الكلام يتبارون فيه ويتنافسون فى فهم هذا ، شعراً كان أم نثراً ، لكن أبواب الكلام لم تخرج عن موضوعات بعينها هى ؛ النسيب والحماسة والمديح والهجاء والرثاء والوصف ، فلما جاء القرآن وجدوا فيه مالم يألّفوه من قبل وإن كان من جنس اللغة التى يتحدثون بها والألفاظ التى يستخدمونها فى كلامهم ، إنه يحدثهم عن البعث والنشور والتوحيد والثواب والعقاب وأخبار الأمم السابقة والجنة والنار ، وحقيقة الخلق ، والهداية ، والإحسان والإيمان والعبادة والعلم ، والحلال والحرام ، فانبهرت به عقولهم لما فيه من العلوم والدرر ، وانشرحت له صدورهم لما فيه من الإشراقات الإلهية والفيوضات القدسية والنفحات الربانية .

كما جاءهم النبي الأمي العربي ﷺ بلسان عربي مبين من الله به عليه ففتح به أعينا عميا ، وأذانا صمًا ، وقلوبا غلفًا ، وأخرج به الناس من ظلمات الكفر والوثنية، إلى نور الإيمان والإسلام، وصدع بالقرآن صناديد البلقاء ومصاقيق الخطباء .

إن الله تعالى أوجد بالقرآن أعظم انقلاب في حياة البشر، فقد أصابت كلماته نفوس العرب حتى صاروا بعد أميتهم وجاهليتهم أساتيد الأمم وسادة العجم، ونقل عنهم التابعون جيلا بعد جيل ما أثر لديهم من فهمهم للقرآن وظهر علماء في كل عصر ممن اتصفوا بالبلاغة شرعوا يبينون للناس وجوه أسرار البلاغة ويؤلفون في ذلك المؤلفات .

ثم « إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن . والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعا معجزا في لغته وبلاغته ، أفاض العلماء فيها بين مقلٍ ومُكثِرٍ ، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف ، وبعد أن دُميت أقدامهم ، وخفيت أعلامهم ، لم يزدوا على أن قدموا إلينا قلا من كثير وقطرة من بحر ، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء ، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه ، وأنهم لم يزدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين . أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب . » (١)

والكلام في وجوه الإعجاز واجب شرعاً وهو من فروض الكفايات لقوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .. » فهي

دعوة من الله وأمر منه سبحانه بتفهم القرآن ونهى عن الإعراض عنه، لأن التدبر فيه هداية إلى الحق لما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصي .

ولقد وجد علماء النحو وعلماء البلاغة فى الفواصل القرآنية ثروة علمية أدبية وذخيرة فنية بلاغية، فأتاحوا لطلاب العلم دروساً تقرب إلى أفهامهم تذوق بلاغة النظم القرآنى والوقوف على بعض معانى الإعجاز وبعض وجوهه، لأن وجوه الإعجاز فيه لا يحيط بها إلا الله عز وجل فالقرآن لا تنقضى عجائبه، والحقيقة التى لا مرأى فيها أن القرآن فجر للناس ينابيع كثيرة من العلوم جعلوا ينهلون من فيوضاتها، فمن علوم الصرف إلى النحو وفنون البلاغة إلى علم الأخلاق وإلى علوم الشريعة وعلوم الطب والفلك مما لم يكن لهم بها علم أو معرفة قبل البعثة المحمدية ونزول القرآن الكريم .

ويهمنا من بين هذه العلوم ما نحن بصدده الآن وهو موضوع درس الفواصل القرآنية بلاغياً، وما قاله العلماء فى شأن هذا ينبوع الفياض والروض الأريض .

مستويات الدرس البلاغى للفاصل

ولما كان قد تكلم فى موضوع الفواصل القرآنية كثير من علماء البلاغة فقد جاء كلامهم متفرقاً فى تصانيفهم؛ متناثراً فى تأليفهم، فرأينا أن نجتمع بعض ما توافر لنا من كلامهم ونخصص له فصلاً مستقلاً، هو هذا الفصل الثالث كى نبين فيه بعض الخصوصيات اللغوية والبدعية للفاصل تحت عنوان « الدرس البلاغى للفاصل القرآنية » .

نعالج فيه الدرس العلمى البلاغى لظاهرة الفواصل وتتناوله على
ثلاثة مستويات -

أولاً - المستوى اللغوى (المناسبة اللغوية للفاصلة)

ثانياً - المستوى الدلالى (مراعاة الفواصل)

ثالثاً - المستوى الصوتى (موسيقى الفواصل)

أولاً : المستوى اللغوى (المناسبة اللغوية للفاصل)

« إننا نلاحظ فى كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك فى الألفاظ التى نمر بها على القرون والأجيال ، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ، ويلتزم ذوقه، ويوائم معارفه ، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال ، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة ، وكان ذلك قدحاً فى أنه كتاب الدين العام الخالد ، ودستور البشرية فى كل عصر ومصر . فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع ، وافياً لتجارب الجميع ، ملائماً لأذواق الجميع ، متفقاً ومعارف الجميع ، مما يدل دلالة واضحة، على أنه كلام الله وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً . » (١)

نقل الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فى كتاب الإنقان

١ - محمد عبد العظيم الزرقانى ، مناهل العرفان فى علوم القرآن ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٨ .

مطبعة عيسى البابى الحلبي .

فى علوم القرآن ما نصه * :-

ألف الشيخ شمس الدين بن الصائغ كتاباً سماه إحكام الراى فى أحكام الآى ، قال فيه (١) :

اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربىة ، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول. قال : وقد تتبع الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً .

أحدُها تقديم المِعْمول :

إما على العامل ، نحو : « أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » (٢) ، قيل : ومنه : « وإياك نستعين » (٣) ، أو على مِعْمول آخر أصله التقديم ، نحو « لنريك من آياتنا الكبرى » (٤) ، إذا أعربنا « الكبرى » مفعول « نرى » ، أو على الفاعل نحو : « ولقد جاء آل فرعون النذر » (٥) . ومنه تقديم خبر كان على اسمها ، نحو : « ولم يكن له كفوا أحد » (٦) .

وتقديم المِعْمول على العامل من فوائده التخصيص ، ولذلك يقال فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » معناه : نخصك بالعبادة

* السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٣ / ٢٢٩ .

١ - إحكام الراى فى أحكام الآى لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحبلى ، المعروف بابن أبى الفرس ، للتوفى سنة ٧٧٦ . ذكره فى كشف الظنون .

٢ - سورة مئاً : الآية ٤٠ .

٣ - سورة الفاتحة : الآية ٥ .

٤ - سورة طه : الآية ٢٣ .

٥ - سورة القمر : الآية ٤١ .

٦ - سورة الاخلاص : الآية ٤ .

لا نعبد غيرك ونخلصك بالاستعانة لانستمع غيرك .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) : معناه إن كنتم تخصصونه بالعبادة ، وفى قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٢) . أخرت صلة الشهادة فى الأول وقدمت فى الثانى ، لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى الثانى اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم ، (٣) .

وفى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا الله تحشرون ﴾ معناه إليه لا إلى غيره ، وفى قوله تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ - النساء ٧٩ - معناه لجميع الناس من العرب والعجم ، على أن التعريف للاستغراق لا لبعضهم المعين على أنه للعهد أى للعرب ، ولا لمسمى الناس على أنه الجنس لئلا يلزم من الأول اختصاصه بالعرب دون العجم لانهصار الناس فى الصنفين ، ومن الثانى اختصاصه بالإنس دون الجن لانهصار من يتصور الإرسال إليهم من أهل الأرضين فيهما ، وعلى تقدير الاستغراق لا يلزم شئ من ذلك لأن التقديم لما كان مفيدا لثبوت الحكم للمقدم ونفيه عما يقابله كان تقديم (للناس) على (رسولا) مفيدا لنفى كونه رسولا لبعضهم خاصة ، (٤) .

١ - سورة البقرة : الآية ١٧٢ .

٢ - سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

٣ - محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزوينى ، الإيضاح لتلخيص المفتاح ، شرح عيد المتعال الصميدى فى كتاب (بنية الإيضاح لتلخيص المفتاح) ج ١ / ٢٢٨ - مكتبة

الأدب بالقاهرة ، ١٤١٢ - ١٩٩١ .

٤ - المصدر السابق ص ٢٢٨ ، ص ٢٢٩ .

وكذلك يذهبُ في معنى قوله تعالى : ﴿ وبالأخرة هم يوقنون ﴾ - البقرة ٤ - إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون « إنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » وأنه لا تمسهم النار إلا أياما معدودات، وأن أهل الجنة لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسبة والأرواح العَبَقَةُ والسماع اللذيذ ، ليست الآخرة ؛ وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء، أى بالآخرة يوقنون لا بغيرها . (١)

ومعظم ذلك أن التقديم لما حقه التأخير إنما يكون للتخصيص وللتناسب كمرعاة الفاصلة في مثل (فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ - طه ٦٧ - وإما لاعتبار آخر مناسب (٢). كما جاء أيضا في سورة طه ﴿ آمنّا برب هارون وموسى ﴾ للمحافظة على الفاصلة بخلاف قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ رب موسى وهارون ﴾ (٣) .

الثانى : تقديم ما هو متأخر في الزمان (٤) :

نحو : ﴿ فله الآخرة والأولى ﴾ (٥) ولولا مراعاة الفواصل لقدمت « الأولى » ، كقوله : ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة ﴾ (٦) .

١ - المصدر السابق ص ٢٢٩ .

٢ - المصدر السابق ص ٢٣٢ .

٣ - المصدر السابق ص ٢٣٥ .

٤ - السيوطى ، الاتقان ٣ / ٣٣٩ .

٥ - سورة النجم آية ٢٥ .

٦ - سورة القصص : آية ٧٠ .

« وفى التقديم والتأخير قالوا برعاية الفاصلة فى مثل آية الليل :

« إن علينا للهذى * وإن لنا للآخرة والأولى » .

عَدَلَ البيان القرآنى فيما عمّا هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة .

وليس القصد إلى رعاية الفاصلة هو وحده الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى . وإنما اقتضاه المعنى أولاً ، فى سياق البشرى والوعيد ، إذ الآخرة خير وأبقى ، وعذابها أشد وأخزى .

وبهذا الملاحظ البيانى قدمت الآخرة على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى عليه الصلاة والسلام بآية الضحى « وللآخرة خير لك من الأولى » ، كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون بآية النازعات « فقال أنا ربكم الأعلى ، فآخذه الله نكال الآخرة والأولى » (١) .

الثالث : تقديم الفاضل على الأفضل : (٢)

نحو : « رب رب هارون وموسى » (٣) .

وهذا التقديم يقتضيه السياق كما يقتضيه أيضاً رعاية الفاصلة ، فأما السياق فلأن الآية بعدها « قال آمنتم له قبل أناذن لكم ... » والضمير فى (له) يعود إلى أقرب مذكور ، ولهذا لم يقل « رب موسى وهارون » لأن الضمير فى هذه الحالة سوف يعود إلى هارون والمراد موسى ،

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز اللىنى ص ٢٧٨ .

٢ - السيوطى ، الأنفان فى علوم القرآن ج ٣ / ص ٣٣٩ .

٣ - سورة طه : الآية ٧٠ .

فلهذا كان لابد لإقامة السياق من الترتيب الذى عليه الآية (برب هارون وموسى) ، وأما الفاصلة - فلأن رؤوس الآيات فى السورة جاءت فى الأغلب الأعم بألف المد المقصورة أو الممدودة . فجاءت مناسبة لها .

الرابع : تقديم الضمير على ما يفسره :

نحو ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ (١) .

لأن تقديم (فى نفسه) على (خيفة) لو أخر عنه لتوهم القارئ تعلقه به لا بقوله (فأوجس) وهو المقصود (٢) . وإنما قدّم الجار والمجرور على المفعول - وإن كان حق المفعول التقديم عليه - لأنه تقديم يفهم حصر الخيفة فى نفسه (٣) .

وتأخير (موسى) جاءت لرعاية الفاصلة بتقديم الجار والمجرور والمفعول على الفاعل لأن الفاصلة فى الآية ألفية (٤) .

وهذا كما فى قوله فى سورة الذاريات : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴾ أى فأضمر فى نفسه الخوف منهم .

وكما فى قوله فى سورة هود : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة .. ﴾ أى أحس منهم الخوف والفرع .

الخامس : تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة : (٥)

١ - سورة طه : الآية ٦٧ .

٢ - السيوطى ، الاتقان ٣ / ٣٤٠ .

٣ - الحسن بن عثمان بن الحسين المفتى ، خلاصة المعانى ، ص ٢١٨ ، دار الاعتصام بتحقيق ودراسة د/ عبد القادر حسين طبعة سنة ١٩٩٣ .

٤ - المرجع السابق والصفحة . ٥ - السيوطى ، الاتقان ٣ / ٣٤٠ .

نحو : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ - الإسراء
آية ١٣ -

فلو كان التقديم للصفة منشورا قبل (يلقاه) وهى هنا جملة نعت
فى محل نصب لفست رعاية الفاصلة ولذلك قدمها رعاية لمناسبة
الفواصل .

السادس : حذف ياء المنقوص المعرف : (١)

نحو ﴿ الكبير المتعال ﴾ - الرعد آية ٩ -

ونحو ﴿ يوم العناد ﴾ - غافر آية ٣٢ -

السابع : حذف ياء الفعل غير المجزوم : (٢)

نحو ﴿ والليل إذا يسر ﴾ - الفجر ٤ -

الثامن : حذف ياء الإضافة : (٣)

نحو ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ ، - القمر آية ١٦ -

ونحو ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ - الرعد آية ٣٢ -

التاسع : زيادة حرف المد : (٤)

نحو : ﴿ الظنونا ﴾ ، ر ﴿ الرسولا ﴾ ، ﴿ السبيلا ﴾ .

ومنه إيقاؤه مع الجازم ، نحو :

﴿ لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ - طه ٧٧ - ،

سنقرؤك فلا تسي - الأعلى ٦ - على القول بأنه نهى .

العاشر : صرف مالا ينصرف : (٥)

نحو : ﴿ قواريرا * قواريرا ﴾ - الإنسان ١٥ ، ١٦ -

١ ، ٢ ، ٣ - السيوطى ، الاتقان ج ٣ / ٣٤٠ .

٤ ، ٥ - المصدر السابق نفسه والمفحة .

- الحادى عشر : إِيْثار تذكير اسم الجنس : (١)
 كقوله : « أعجاز نخل منقعر » - القمر ٢٠ -
 الثانى عشر : إِيْثار تأنيثه : (٢)

نحو « أعجاز نخل خاوية » - الحاقة ٧ - .
 ونظير هذين قوله فى القمر : « وكل صغير وكبير مستطر » -
 القمر ٥٣ - ، وفى الكهف « لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »
 - الكهف ٤٩ - .

الثالث عشر : الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرىء
 بهما فى السبع فى غير ذلك :
 كقوله تعالى : « فأولئك تحروا رشداً » (٣) ، ولم يجىء « رشداً
 » فى السبع ، وكذا « وهىء لنا من أمرنا رشداً » (٤) ، لأن الفواصل
 فى السورتين محرركة الوسط ، وقد جاء فى « وإن يروا سبيل الرشداً »
 (٥) ، ونظير ذلك قراءة « تَبَّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وَتَبَّ » (٦) بفتح الهاء
 وسكونها ، ولم يقرأ « سَيَصْلَى نارا ذات لهب » (٧) إلا بالفتح لمراجعة
 الفاصلة .

الرابع عشر : إيراد الجملة التى رد بها ما قبلها على غير وجه
 المطابقة فى الإسمية والفعلية :
 كقوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر
 وما هم بمؤمنين » (٨) ، لم يطابق بين قولهم : « آمنا » ، وبين ما ،

٢٠ ١ - المصدر السابق نفسه والصفحة .

٤ - الكهف ١٠ .

٣ - الجن ١٤ .

٦ ، ٧ - المد ٣

٥ - الأعراف ١٤٦ .

٨ - البقرة ٨ .

وردَّ به فيقول و « لم يؤمنوا » ، أو « ما آمنوا » لذلك .

الخامس عشر : إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك :

نحو : « فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (١) ولم يقل : « الذين كذبوا » .

السادس عشر : إيراد أحد جزأى الجملتين على غير الوجه الذى أورد نظيرها من الجملة الأخرى :

نحو : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٢) .

السابع عشر : إيثار أغرب اللفظتين :

نحو : « قسمة ضيزى » (٣) ولم يقل « جائرة » « لينبلن فى الخطمة » (٤) ، ولم يقل « جهنم » أو النار ، وقال فى المذثر : « ساصيله سقر » (٥) ، وفى سأل « إنها لظى » (٦) ، وفى القارعة « فامه هاوية » (٧) لمراعاة فواصل كل سورة .

الثامن عشر : اختصاص كل من المشتركين بموضع :

نحو : « وليذكر أولوا الألباب » (٨) ، وفى سورة طه « إن ذلك لآيات لأولى النهى » (٩)

٢ - البقرة ١٧٧ .

٤ - الهزرة ٤ .

٦ - المعارج ١٥ .

٨ - إبراهيم ٥٢ .

١ - العنكبوت ٣ .

٣ - النجم ٢٢ .

٥ - المذثر ٢٦ .

٧ - القارعة ٩ .

٩ - طه ١٢٨ .

التاسع عشر : حذف المفعول :

نحو : « فاما من أعطى واتقى » (١) ، « ما ودعك ربك وما قلى » (٢) . ومه حذف متعلق « أفعل التفضيل » ، نحو : « يعلم السر وأخفى » (٣) ، « خير وأبقى » (٤) .

العشرون : الاستغناء بالإفراد عن التثنية :

نحو : « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » (٥) .

الحادى والعشرون : الاستغناء به عن الجمع :

نحو : « واجعلنا للمتقين إماما » (٦) ، ولم يقل : « أئمة » ، كما قال : « وجعلناهم أئمة يهدون » (٧) . « إن المتقين فى جنات ونهر » (٨) ، أى أنهار .

الثانى والعشرون : الاستغناء التثنية عن الإفراد :

نحو « ولئن خاف مقام ربه جنتان » (٩) ، قال الفراء : أراد «جنة» ، كقوله : « فإن الجنة هى المأوى » (١٠) ، فشئى لأجل الفاصلة . قال : والقوافى تحتل من الزيادة والنقصان مالا يحتمله سائر الكلام ، ونظير ذلك فى قول الفراء أيضا فى قوله تعالى : « إذ أنبعث أشقاها » (١١) فإنهما رجلان : قدار وآخر معه ، ولم يقل « أشقياء »

-
- | | |
|-------------------|--------------------|
| ١ - الليل ٥ . | ٢ - الضحى ٣ . |
| ٣ - طه ٧ | ٤ - الأعلى ١٧ . |
| ٥ - طه ١١٧ . | ٦ - الفرقان ٧٤ . |
| ٧ - الأنبياء ٧٣ . | ٨ - القمر ٥٤ . |
| ٩ - الرحمن ٤٦ . | ١٠ - النازعات ٤١ . |
| ١١ - الشمس ١٢ . | |

للفاصلة، وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه، وقال : إنما يجوز في
 رعوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همزة، أو حرف، فأما
 أن يكون الله وعد بختين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رعوس الآي ،
 معاذ الله ! وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين ، قال : « ذواتا
 أفسان » (١) ، ثم قال : « فيهما » (١) ، وأما ابن الصائغ فإنه نقل
 عن الفراء أنه أراد « جنات فأطلق الثنتين على الجمع لأجل الفاصلة . ثم
 قال : وهذا غير بعيد ، قال : وإنما عاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية
 مراعاة اللفظ ، وهذا هو الثالث والعشرون .

الرابع والعشرون : والاستغناء بالجمع عن الأفراد :

نحو : « لا يبيع فيه ولا خلال » (٢) أى ولا خلعة ، كما في الآية
 الأخرى، وجمع مراعاة للفاصلة .

الخامس والعشرون : إجراء غير العاقل مجرى العاقل :

نحو : « رأيتهم لى ساجدين » (٣) ، « كل فى فلك يسبحون » (٤) .

السادس والعشرون : إمالة ما لا يمال ، كآى طه والنجم .

السابع والعشرون : الإتيان بصيغة المبالغة ، كقدير وعليم مع
 ترك ذلك :

فى نحو هو القادر وعالم الغيب ، ومنه « وما كان ربك نسياً » (٨) .

١ - الرحمن ٤٨ ، ٥٠ .

٢ - إبراهيم ٣١ .

٣ - يوسف ٤ .

٤ - الأنبياء ٣٣ .

٥ - مريم ٦٤ .

الثامن والعشرون : إثارة بعض أوصاف المبالغة على بعض :

نحو : ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ (١) ، أوتر على « عجب » لذلك .

التاسع والعشرون : الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه :

نحو : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ (٢) .

الثلاثون : إيقاع الظاهر . موضع المضمر :

نحو : ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا

لأنضيق أجراً للمصلحين ﴾ (٣) ، وكذا آية الكهف (*) . (.. إنا
لأنضيق أجراً من أحسن عملاً) .

الحادي والثلاثون : وقوع « مفعول » موقع « فاعل » :

كقوله : ﴿ حجاباً مستورا ﴾ (٤) ، ﴿ كان وعده مائياً ﴾ (٥) ، أى
ساتراً وآتياً .

الثاني والثلاثون : وقوع « فاعل » موقع « مفعول » :

نحو : ﴿ فى عيشة راضية ﴾ (٦) ، ﴿ من ماء دافق ﴾ (٧) .

الثالث والثلاثون : الفصل بين الموصوف والصفة :

نحو : ﴿ أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ (٨) إن أعرب

١ - ص ٥ . ٢ - طه ١٢٩ .

٣ - الأعراف ١٧٠ . ٤ - الأسراء ٤٥ .

٥ - مريم ٦١ . ٦ - البطاقة ٢١ .

٧ - الطارق ٦ . ٨ - الأعلى ٤ ، ٥ .

* وهى الآية ٣٠ من سورة الكهف .

«أوحى» صفة «المرعى» ، أى حالا .

الرابع والثلاثون : إيقاع حروف مكان غيره :

نحو : « بأن ربك أوحى لها » (١) والأصل « إليها » .

الخامس والثلاثون : تأخير الوصف غير الأبلغ ، ومنه :

« الرحمن الرحيم » ، « رءوف رحيم » (٢) ، لأن الرأفة أبلغ من الرحمة .

السادس والثلاثون : حذف الفاعل ونياحة المفعول :

نحو : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » (٣) .

السابع والثلاثون : إثبات هاء السكت :

نحو : « مَلِيَّة » (٤) « سلطانيه » (٥) ، « ماهيه » (٦) .

الثامن والثلاثون : الجمع بين المنجورات :

نحو : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » ، فإن الأحسن الفصل بينها ، إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير « تبيعا » .

التاسع والثلاثون : العدول عن صيغة المضى إلى صيغة الاستقبال :

١ - الزلزلة ٥ .

٢ - التوبة ١٢٨ .

٣ - الليل ١٩ .

٤ ، ٥ - سورة الحاقة ٢٨ ، ٢٩ . ٦ - سورة القارة آية ١٠ .

﴿ ففريقا كذبتهم وفريقا تقتلون ﴾ (١) ، والأصل « قتلتم » .

الأربعون : تغيير بنية الكلمة :

نحو : ﴿ وطور سينين ﴾ (٢) ، والأصل « سينا » .

نبيه

قال ابن الصائغ لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة ، فإن القرآن العظيم - كما جاء في الأثر - « لا تنقضى عجائبه » . (٣)

ونضيف إلى ما سبق أيضا ما نسميه نحن « غرائب الفواصل » ، وهو من غريب القرآن يقول الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي « الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم ، كما أن الغريب من الناس هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل ؛ والغريب من الكلام يقال به على وجهين : أحدهما أنه يراد به أنه بعيد المعنى غامضه ، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر ، والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها » .. وروى عن أبي هريرة مرفوعا (أعربوا القرآن ، والتمسوا غرائب) (٤) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ - عبس ٣١ - قال

٢ - التين آية ٢ .

١ - البقرة ٨٧ .

٣ - السيوطي ، الاتقان ج ٣ / ٣٤٥ .

٤ - أبو عبيد الهروي ؛ كملب الغريبين ، ج ١ / ٩ .

بعضهم الأب : المرعى - وقال غيره : الأب : هو للبهايم كالفاكهة للناس .

وقال شيمر : الأب : مرعى السوائم وأنشد : (١)

فأنزلت ماءً من المعصرات

فأنبت أبا وغلب الشجر

وكما فى قوله تعالى : « أبابيل » أى جماعات متفرقة .

وكما فى قوله تعالى : « ضيزى » أى جائرة .

- قال الرافعى : وفى القرآن ألفاظ اصطلاح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد أنها منكرة أو نافرة أو شاذة ، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ها هنا هى التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل ، بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس (٢) .

ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد مما سبق بيانه فى مناسبة الفاصلة أن نورد رأى الدكتور عائشة عبد الرحمن التى سجلته فى كتابها (الإعجاز البيانى) للرد على من قال بأن الفواصل القرآنية إنما يراعى فيها تناسب الفواصل فحسب وهى لذلك يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول ، حيث هاجمت هذا رأى وأوضحت أنه مامن فاصلة قرآنية إلا ولها دلالة معنوية أخرى غير التناسب ولفظها فى السياق لا يؤدى معناه لفظ سواء إذ البلاغة من حيث هى فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى

١- المرجع السابق ، ج ١ ص ٧ .

٢ - مصطفى صادق الرافعى ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٥٦ دار المنار بالقاهرة ، ومكتبة فياض بالمنصورة - الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٧ .

وبينى أسلوب الأداء .. تقول :

« يكون من المجدى فى القضية ، أن تدبر شكلية للرونق اللفظى ، أو أن فواصله تأتى لمقتضيات معنوية ، مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل ، واكتلاف الجرس لألفاظها التى اقتضتها المعانى على نحو تنقاصر دونه بلاغة البلغاء ؟

وأختار هنا شواهد من الفواصل التى مال « الفراء » ومن ذهب مذهبه ، إلى حملها على قصد المشاكلة اللفظية بين رءوس الآيات ، بإيثار نسق على آخر ، أو العدول عن لفظ إلى غيره فى معناه . دون أن يحتاطوا لدفع وهم الإطلاق ، والتعميم ، بذكر المقتضى المعنوى للفواصل المرعية .

ننظر ، مثلاً ، فى هذه الفواصل القرآنية :

« والضحى * والليل إذا سجي * ما ودعك ربك وما قلى » .

ذهب « الفراء » إلى أن القرآن جرى فيها على طرح كاف الخطاب من : فلاك ، اكتفاء بالكاف الأولى - فى ودعك - ولمشاكلة رءوس الآيات (١) .

وعد « الفخر الرازى » من وجوه حذف الكاف رعاية الفاصلة (٢) .

ومثله « النيسابورى » فى تفسيره لآيات الضحى (٣) ، ونظائرها .

ولو كان البيان القرآنى يتعلق بهذا الملحظ اللفظى فحسب ، لما

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى ، ص ٢٦٨ .

٢ - التفسير الكبير ، للرازى : ج ٨ سورة الضحى .

٣ - على هامش تفسير الطبرى . ط مصر .

عدل عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها :

﴿ فاما اليتيم فلا تقهر * واما السائل فلا تنهر * واما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

وليس في الصورة كلها « ثاء » فاصلة .

بل ليس فيها حرف ثاء ، على الإطلاق .

وعلى مذهبهم ، كانت الفواصل تراعى بمثل لفظ : فخبّر ، لمشكلة رءوس الآيات بالعدول إلى هذا اللفظ ، عن : « فحدث »

ونرى ، والله أعلم ، أن حذف كاف من : « وما قلى » مع دلالة السياق عليها ، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللفظ ، هي تخاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى ، في موقف الإناس ، بصريح القول : وما قلاك .

لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض . وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب ، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء .

وحذفت كاف الخطاب في الفواصل بعدها ، لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها . ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنيا عن الكاف ، فإن ذكرها يكون من الفضول والحشو المنزه عنهما أعلى بيان ، (١) .

تقول أيضا : (٢)

وآيات الفجر :

﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر *

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني ص ٢٦٩ .

٢ - المرجع السابق نفسه والصفحة .

هل فى ذلك قسم لذى حجر * ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد .

صرح « الفراء » فى (معانى القرآن) بأن ياء العلة حذفت من : يسر (ي) لمشاكلة رعوس الآيات . وكذلك ذهب « ابن سنان الخفاجى » فى (سر الفصاحة) إلى حذفها وحذف ياء المنقوص من : بالواد (ي) قصدا إلى تماثل الفواصل .

لأن القاعدة عندهم ، إثبات ياء العلة ، فى الفعل المضارع المرفوع . وإثبات ياء الاسم المنقوص مجرورا ومرفوعا ، إذا اقترن بـ : ال ، أو أضيف .

ويكفى للرد على من ذهبوا إلى حذف الياءين فى آيات الفجر ، لرعاية الفاصلة ، أن تذكر أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذفهما هنا فى مقاطع الآيات ، ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية الفواصل وتماثل رعوس الآيات ، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر ، وواوه أيضا ، وياء المنقوص مضافا ومعرفا بأل ، فى أواسط الجمل ودرج الكلام ، وقد عقد الإمام « أبو عمرو الدانى » بابا فى ذكر أصول القراء الأئمة ، فى الياءات المحذوفة من الرسم ومنها فى غير الفواصل (١) :

هود ١٠٥ : « ويوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه »

الإسراء : « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير »

١ - الدانى : (كتاب التيسير فى القراءات السبع) ٦٩ - ٧١ ط استانبول ١٩٣٠ م .

القمر : « مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر »
ق ٤١ : « واستمع ، يوم يناد المناد من مكان قريب » .

النازعات ١٦ : « وهل أُنَّاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد
المقدس طوى » ومعها القصص ٣٠ ، طه ١٢ .

النمل ١٨ : « حتى إذا أتو على واد النمل قالت نملة يأيها
النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده
وهم لا يشعرون » .

الروم ٥٣ : « وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم » .
البقرة ١٨٦ : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة
الداع إذا دعان فليستجيبوا لى .. »

الصفاف ١٦٣ : « إلا من هو صال الجحيم » .
الرحمن ٢٤ : « وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام » .
التكوير ١٥ : « فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس » .

ولا مجال لقول فى هذه الآيات ونظائرها ، بحذف ياء المنقوص
المضاف أو المعارف بأل ، وآخر المضارع المرفوع المعتل بالوار أو الياء ،
لرعاية الفواصل ، ومشكلة رءوس الآيات . وقد يسبق إلى الظن أن الياء
والواو حذفتا فيها للتخلص من التقائهما ساكتين ، بساكن بعدهما ،
إلا أن نلتفت إلى آيات هود والبقرة والقمر ، والحرف فيها غير متلو بحرف
ساكن .

١ - الداني : (كتاب التيسير فى القراءات السبع) ٦٩ - ٧١ ط استنبول ١٩٣٠ م .

أفلا يكون القائلون بالحذف لرعاية الفواصل قد تعجلوا بمثل هذا القول في آيات الفجر ونظائرها، محتكمين إلى قواعد اللغويين والنحاة في المعتل الآخر والمنقوص ، حين ينبغي أن نعرض قواعدهم على ما يهdy إليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والإثبات في الكتاب المحكم ؟

* * *

وتستطرد المذكورة عائشة قائلة :

وآيتا الأعلى :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الى خلق فسوى ﴾

والليل : ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾ .

ليست صيغة « الأعلى » معدولا إليها فيهما عن العلى لمجرد رعاية الفاصلة . ولا أريد بها المفاضلة بين أعلى وعال ، على ما وهم بعضهم خضوعا لأحكام اللغويين في صيغ التفضيل ودلالاتها . وقد جر هذا الوهم إلى ما أشار إليه « الفخر الرازى » من تعلق الملاحظة في « ربه الأعلى » من اقتضاء أن يكون هناك رب آخر مفضولا في العلو (١) ، على ما يقتضى به منطق التفضل عندهم وقواعده .

وذلك من عقم الحسن في من يغيب عنه السر البياني في إطلاق مثل صيغة الأعلى - والعليا - دون قصد إلى مفاضلة أو ترتيب ، وإنما القصد إلى المضى بالعلو إلى نهايته القصوى بغير حدود ولا قيود .

وهو نفس الملحظ الدلالى لصيغ : الحسنى ، واليسرى ، والعسرى ،

١ - التفسير الكبير للرازى : ج ٨ ، سورة الليل .

والأشقى، والأتقى، في سورة « الليل » ذالة على غاية الحسن واليسر
والتقوى، وأقصى العسر واشقاء الذي ما بعده من شقاء .
ومثلها صيغة الأكرم في آية العلق .

﴿ اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم ﴾ .

لم يعدل فيها عن الكريم إلى الأكرم ، لمجرد رعاية الفاصلة ، ولا
أقصد بها المفاضلة بين أكرم وكريم ، على ما تأوله مفسرون ، وساقوا
وجوها عدة لأكرميته تعالى (١) .

واستقراء آياتها ، يشهد بأن صيغتي الأفعال والفعلى ، تفيدان
الإطلاق إلى أقصى المدى ، بغير حد أو قيد مفاضلة .

إنما تتعين المفاضلة بذكر المفضل ، مضافا إليه أو مجرورا بحرف
من ، في مثل : أكثر الناس ، أكثركم ، أكبر من أختها ، والفتنة أشد من
القتل ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر..

وجه التفضيل في مثل قوله تعالى : ﴿ والله خير الماكرين ﴾ انه في
سياق الحديث عن مكر المخلوقين : ثمود في آية (النمل ٥٠)
والكافرين من بنى إسرائيل (آل عمران ٥٤) والذين كفروا من قريش
(الأنفال ٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ بآيات يونس ١٠٩ ،
والأعراف ٨٧ ، ويوسف ٣٠ ، ومعها ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ في آيتي
هود ٤٥ والتين ٨ .

١ - التفسير الكبير للرازي : ج ٨ ، سورة العلق .

منظور فيها إلى أن الحكم قد يكون من المخلوقين ومنه في القرآن الكريم مثل آيات : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ﴿ وليحكم به ذوا عدل منكم ﴾ ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرب ﴾ ﴿ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فإذا لم ينظر فيه إلى أن الخلق قد يكون من الناس - و « الراغب » في المفردات (١) يفرق بين الخلق من الله على غير مثال ، ومن الناس على مثال - فأقرب ما يبدو لنا من وجه فيه ، أن العربية لاتصوغ أفعال وفعلى ، من : خلق فهو خالق . إنما تصوغ الأخلق من معنى : خليق .

والتقييد بوجه مفاضلة ، في أفعال التفضيل ، إنما يتعين صراحة بالتمييز في مثل : أكبر شهادة ، أكثر أموالا ، أكثر جمعا ، أكثر شيء جدلا ، أزكى طعاما ، أعظم درجة ، أهدى سبيل ..

وذلك كله غير الإطلاق بصيغتي : الأفعال ، والفعلى . إلا أن يصرح في النص بقيد تميز أو تخصص ومقارنة ، كالذى في آيات :

الكهف ١٠٣ : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .
آل عمران ١٨٢ : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾

معها : محمد ٣٥ .

١ - مفردات الراغب الأصفهاني في غريب القرآن مادة (خلق)

الأنفال ٤٢ : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾
الإسراء ١ : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد
الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ .

فإذا أطلق « الأفعل ، والفعلى » من قيد ومن مفضل ، خرج ،
والله أعلم ، عن دلالة المفاضلة وخصوصية القيد ، وأفاد الإطلاق غير
المحدود ، فذلك هو قوله تعالى :

﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ ومثله :

﴿ الآية الكبرى ﴾ فى سورتى النازعات والنجم .

و ﴿ آياتنا الكبرى ﴾ فى سورة طه .

و ﴿ البطشة الكبرى ﴾ فى سورة الدخان .

و ﴿ الطامة الكبرى ﴾ فى سورة النازعات .

و ﴿ النار الكبرى ﴾ فى سورة الأعلى .

و ﴿ النخل الأعلى ﴾ فى سورتى النحل والروم .

وتضيف المذكورة عائشة : (١)

وآية الرحمن :

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان * .. ذواتا أفنان ﴾

ليست تشية جنتين فيها مراداً بها الأفراد وعدل القرآن إليها مراعاة
لتنظيم كما ذهب « الفراء » وإنما السياق قبلها وبعدها على التشية .
وواضح لنا أن المراد بالآية : ولمن خاف مقام ربه ، من الإنس والجان ،

١ - د/ عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني ، ص ٢٧٤ .

جنتان . ﴿ ذواتا أفنان ﴾ فبأى آلاء ربكما تكذبان .

* * *

وتقول أيضا :

وآية التكائر :

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ حتى زرتم المقابر

تجد الصنعة البلاغية فيها أن المقابر أثرت على القبور ، للمشاكلة اللفظية بينها وبين التكائر . ويحس البلاغيون ، ونحس معهم ، نسق الإيقاع بها وانسجام الجرس .

لكن وراء هذا الملحظ البلاغى فى النسق اللفظى ، ملحظا يسانيا اقتضاه المعنى :

فالمقابر جمع مقبرة ، وهى مجتمع القبور . واستعمالها هنا هو الملائم معنويا لهذا التكائر ، دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون فى حطام الدنيا .. هناك حيث مجتمع الموتى ومحتشد الرمم على اختلاف الأعمار والأجيال والطبقات . وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول ، لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور جمع قبر .

فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت ، يتجلى البيان القرآنى فى إشار المقابر على القبور ، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر فيها المتكاثرون على مر العصور والأجيال ... (١)

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى ، ص ٢٧٤ .

وتقول أيضا :

ومما قالوا فيه برعاية الفاصلة ، آيات الهمزة :

﴿ نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة *

في عمد ممددة ﴾ .

على القول بأن الأفئدة في معنى القلوب ، وعدل إليها للمخالفة بين رءوس الآيات .

ولا تترادف الأفئدة والقلوب في حس العربة المرفف ، ليقال فيهما برعاية الفاصلة . بل يطلق القلب بدلالة عامة على الجهاز العضوى من أجهزة الجسم ، وعلى موضع الشعور والأهواء والعقيدة والوجدان .

وأما الفؤاد فلا يطلق إلا بدلالة خاصة على المعنوى دون العضوى . ونحن نعرف مثلا جراحة القلب ، وأما جراحة الفؤاد فلا تدخل في نطاق الطب البشرى . ونحن نأكل القلب كما نأكل الكبد والكلى ، وأما الفؤاد فليس مما يؤكل أو يباع . كما نعرف قلوبا للبشر والحيوان الأعجم على اختلاف فصائله ، وأما الفؤاد فلإنسان لاغير ...

وبهذه الخصوصية في الدلالة المعنوية للفؤاد ، جاء اللفظ مفردا وجمعا ست عشرة مرة في القرآن الكريم ، ليس فيها ما يحمل على معنى الجراحة .

والقلب ، وإن جاء في القرآن في المعنويات كذلك من الاطمئنان والسكينة والرحمة والتألف والخشوع والوجل والفقه والطهر ، ومع الارتباب والتقلب والخوف والاشمئزاز والقسوة والتكبر والجبروت والزيف والمرض والإثم والغفلة والعمى ، إلا أن العربية ، لغة القرآن ، لا تستعمل

غير القلب فى الدلالة الأصلية على هذا العضو من الجسم .

وإذن يكون لإيثار الأفئدة على القلوب فى آية الهمزة ، مع الملاحظ
البلاغى من النسق اللفظى والجرس الصوتى ، مقتضاه المعنوى البيانى ،
فى تخليص الأفئدة من حس العضوية التى يحتملها لفظ القلوب فيما
ألف العرب من لغتهم . ولا نزال نستعمل القلب بمعناه العضوى فى
التشريح والطب وأصناف اللحوم ، ولا نستعمل الفؤاد بهذه الدلالة على
الإطلاق .

وكذلك لا مترادف مؤصدة ومغلقة ، ليقال باحتمال العدول عن
أولهما إلى الأخرى رعاية للفاصلة .

بل يتميز الإيصاد بخصوصية الدلالة على إحكام الإغلاق وقوة
تحصينه ، والعربية استعملت « الوصيد » للبيت الحصين يتخذ من حجارة
فى الجبال ، وتقول : استوصد فى الجبل ، أى اتخذ فيه حظيرة من
حجارة .

وبمثل هذا المعنى من الإيصاد المحكم ، جاءت آية البلد :

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة »

ولا رعاية فيها لفاصلة لفظية ، بل المعنى من إطباق النار على
أصحاب المشأمة وإحكام إيصادها ، هو ما تعلق به البائى الأعلى ، والله
أعلم .

وفى موضوع التعدية بحروف الجر تقول :

وآية الزلزلة :

« وأخرجت الأرض أثقالها* وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها *
* بأن ربك أوحى لها » .

قَالُوا فِيهَا : « وعدى أوحى باللام ، وإن كا المشهور تعديتها
بالى ، لمراعاة الفواصل » (١)

ونستقرئ مواضع فعل الإيحاء فى القرآن كله فلا نراه يتعدى بـ «
إلى » إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء . يطرد ذلك فى كل آيات
الإيحاء بالى ، وعددها سبع وستون آية .

وأما حين يكون الموحى له جمادا ، فالفعل ، يتعدى باللام كآية
الزلزلة ، أو بحرف فى ، كما فى آية فصلت : « وأوحى فى كل سماء
أمرها » .

ودلالة « اللام » الإيحاد المباشر على وجه التسخير ، ودلالة « فى »
البث والملابسة . وأما الإيحاء بـ « إلى » ف يأخذ دلالة الخاصة فى
المصطلح الدينى للوحى ، إذا كان الموحى إليه من الأنبياء .

والى غير الأنبياء ، بشرا أو حيوانا يكون الإيحاء بمعنى الإلهام .
وللجماد بمعنى التسخير ، فلا يكون الإيحاء للأرض فى آية الزلزلة ،
عدولا عن : أوحى إليها ، لمراعاة الفواصل ؛

بل التعدية باللام هنا متعينة ، لأن الموحى إليه جماد ، وقد هدى
الاستقراء إلى أن القرآن لا يعدى الفعل بحرف « إلى » إلا حين يكون
الموحى إليه من الأحياء .

١ - أبو حيان : البحر المحيط ، ٨٠ / ٥٠٦ الزلزلة .

وفى ظاهرة التقديم والتأخير نقول :

وفى التقديم والتأخير ، قالوا برعاية الفاصلة فى مثل آية الليل :

﴿ وإن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

عدل البيان القرآنى فيما عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة .

وليس القصد إلى رعاية الفاصلة ، هو وحده الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى . وإنما اقتضاها المعنى أولا ، فى سياق البشرى والوعيد ، إذ الآخرة خير وأبقى ، وعذابهما أكبر وأشد وأخزى ...

وبهذا الملحظ البيانى قدمت الآخرة على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى . عليه الصلاة والسلام ، بآية الضحى .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾

كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون ، بآية النازعات :

﴿ فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

تم توجز كلامها فيما سبق بقولها :

« مقتضى الإعجاز أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضى لفظها فى سياقها ، دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواء ، قد تدبره فتتهدى إلى سره

البياني وقد يغيب عنا فنقر بالقصور عن إدراكه .

ولا يظن بى أننى أهون من قيمة التآلف اللفظى والإيقاع الصوتى لهذا النسق الباهر الذى يحتلى فيه فنية البلاغة، تؤدى المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع .

فالبلاغة من حيث هى فن القول ، لاتفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كما لاتعتد بالألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعى .

وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالاتها المعنوية المرفهة ونسقها الفردى فى إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظى يكره الكلمات على أن تجيء فى غير مواضعها ، (١) .

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز اللىلى ، ص ٢٧٨ .

الرد على رأى الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى فهمها لمذهب
الفراء :-

وجه بعض الأساتذة الباحثين نقدا للدكتورة عائشة عبد الرحمن
فيما يختص بمذهب أبى زكريا الفراء ، قال :

« نحن نتفق ابتداء مع الدكتورة عائشة على أن الفواصل القرآنية
تابعة للمعاني ولكننا نختلف معها فى فهمها لمذهب الفراء .

ولننظر الآن كيف ردت الدكتورة عائشة على الفراء فى آية الفجر :
« والليل إذا يسر » قالت : « صرح الفراء فى (معانى القرآن) بأن ياء
العله حذفت من يسر (ى) لمشكلة رءوس الآيات ، وكذلك ذهب (ابن
سنان الخفاجى) إلى حذفها وحذف ياء المنقوص من بالواد (ى) قصدا
إلى تماثل الفواصل ، لأن القاعدة عندهم إثبات ياء العله فى الفعل
المضارع المرفوع وإثبات ياء الاسم المنقوص مجرورا ومرفوعا إذا اقترن بأل
أو أضيف ، (١) .

« ويكفى للرد على من ذهبوا إلى حذف الياء فى آيات الفجر
لرعاية الفاصلة أن نلفت إلى أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذفهما
هنا فى مقاطع الآيات ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية
الفواصل وتماثل رءوس الآيات ، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع .
المعتل الآخر وواوه أيضا وياء المنقوص مضافا ومعرفا بأل فى أواسط
الجمل ودرج الكلام كالذى فى الآيات التالية على قراءة حفص (٢) .

١ - د/ محمود نخلة ، لغة القرآن الكريم فى جزء عم ، دار النهضة العربية بيروت ص ٣٧٧ .

٢ - د/ عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥١ .

ومضت الدكتور تستشهد ببعض الآيات التي وقع فيها الحلف ،
وما استشهدت به بعض أصحاب الآيات ، لا سيما : ١

والأمر بعد لا يستحق هذا العناء من الدكتور عائشة ، وأن تحتشد له هذا الاحتشاد ، لأنه لا صلة له بالمعنى من قريب أو من بعيد. فإن حذف الياء أو الواو في الآيات التي استشهدت بها لا يؤثر في المعنى بشيء ومن ثم يسقط الاحتجاج بما تقول .

ويرى البحث أنه على الرغم من وجاهة هذا النقد للأستاذ الناقد إلا أن الدكتور عائشة على حق في كلامها وربما كان في تحليلها كثير من الفوائد لاتخفى على القارئ .

ويقول الدكتور تمام حسان في رعاية الفواصل :

« الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى في كثير من آيات القرآن ، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخير من عناصر الجملة . ولقد يتكلم البلاغيون في أغراض التقديم والتأخير فيوردون من أسباب ذلك أموراً تدور حول رعاية المعنى ، ربما جعلوا « الاهتمام بمدلول اللفظ » عنواناً يندرج تحته الكثير من هذه الأمور . وهذا أمر لا اعتراض عليه . ولكنني لا أعلم واحداً منهم جعل من أغراض التقديم والتأخير والانتفاع بجرس اللفظ ، ربما تركوا ذلك لاهتمامات الشعراء أنفسهم عند اختيارهم للقوافي . أما في القرآن الكريم فإن أحد الأسباب يمكن أن يوصف بأنه « رعاية الفاصلة » قارن من ذلك ما يلي : - (١)

رتبة أصلية رتبة مشوشة من أجل الفاصلة

١ - وينفقون مما رزقناهم « وما رزقناهم ينفقون » البقرة ٢

٢ - تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ص ٢٨٢ .

- ٢ - وهم يوقنون بالآخرة « وبالأخرة هم يوقنون » البقرة ٤
- ٣ - وكانوا يظلمون أنفسهم « وأنفسهم كانوا يظلمون » الأعراف ١٧٧
- ٤ - « فلا يؤمنون إلا قليلا » النساء ٤٦ ، ١٥٥

« قليلا ما يؤمنون » البقرة ٨٨

لاحظ على وجه الخصوص رقم ٤ فإنك واجد فيه شاهدين من القرآن احتملا على ألفاظ بعينها اختلفت رتبتهما في أحدهما عنها في الآخر رعاية للفاصلة وقد يتجاوز التقديم والتأخير رتبة الألفاظ إلى رتبة الأحداث التاريخية، فيتم تشويش تتابع الأحداث لرعاية الفاصلة، كما في قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً * » (النساء ١٦٣ - ١٦٤) ، فانظر كيف تقدم عيسى على سلفه وتقدم سليمان على داود وكيف تقدما معا على موسى رعاية للفاصلة ، بل حتى عند التفصيل المشتمل على شيء من الطباق نجد « ففريقاً كذبتهم وفريقاً تفتلون » (البقرة ٨٧) بدلا من « ففريقاً كذبتهم وفريقاً قتلتم » وكذلك « قال سننظر أصدق أم كنت من الكاذبين » (النمل ٢٧) بدلا من « أم كذبت » وأيضا : « قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » (النمل ٤١) بدلا من « أم لا تهتدى » أو « أم لا » كل ذلك يشهد على أن الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة معينة في القرآن الكريم وهذه الوظيفة جمالية تستحق الرعاية

ولو تعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية (١).

والمعروف أن اللغة العربية أوسع من النحو العربي لأن النحو قواعد أنيط بها تنظيم ما أطرده من اللغة ، ثم يبقى بعد ذلك جزء من اللغة لا يخضع لقواعد النحو بسبب عدم اطراده وهو جزء من اللغة يتساوى مع المطرد فى الفصاحة . فمن قواعد الأصول عند النحاة قاعدة تقول : « الشذوذ لا ينافى الفصاحة » ، ولقد نزل القرآن بلسان عربى مبين (لأنه عربى متين) وهكذا امتدت تراكيبه على رحابة اللغة ، ولم تنحس فى بوتقة القواعد النحوية ، فالقرآن يهيمن على اللغة كلها ما أطرده منها وما لم يطرده . أضف إلى ذلك أن القراءة سنة متبعة ، لأن القرآن مروي بلفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى تلقاه عن جبريل عليه السلام . وقد رواه الصحابة والتابعون ، ومن تبعهم بالتواتر جمعا عن جمع . وهذا النص للمروي ربما تحدى أصول النحاة بالعدول أو تحدى قواعدهم بالترخص ، وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذلك الترخص فى القاعدة لرعاية الفاصلة . فمن المقرر فى القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذى بعد الفتحة عند الوقف ، كما سبق فى قوله تعالى : « فلا يؤمنون إلا قليلا » (النساء ٤٦ - ١٥٥) ، ولأن التنوين الذى نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التعريف (ال) خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى فى قوافى الشعر ، لأن الألف التى تجامع (ال) فى قوافى الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويض . ومع ذلك تأتى ألف الإبدال فى القرآن فى كلمات اقترنت بأداة التعريف ، وكانت

الألف في هذه الحالة لرعاية الفاصلة ، كما في قوله تعالى : (١)

١ - « وتظنون بالله الظنونا » (الأحزاب ١٠)

٢ - « ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول » (الأحزاب ٦٦)

٣ - « إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (الأحزاب ٦٧)

وقد أصاب الدكتور تمام حسان في هذا التوجيه ، وإن كنا لانرضى منه لفظ رتبة « مشوشة » عنوانا للتقييم ، وكان من الممكن أن يقول « رتبة النظم » لأن في التشويش معنى التخليط وهذا لا يجوز أن يوصف به نظم القرآن وكان عليه أن يدقق في معنى التقديم والتأخير الذى يطلبه ويوفق بينه وبين الموجود فى الآية .

وأى خاطئ للدكتور تمام حسان يجب تصحيحه :

للدكتور تمام حسان كلام جميل فى الفاصلة استفدت منه كثيرا فى البحث الماثل بين أيدينا ، لكنه فى تعليقه لجمال الفاصلة فى ختم الآية وقع فى خطأ كبير يجدر به أن يستغفر الله منه ، ذلك أنه قد أعجب كثيراً بمراعاة الفواصل وأورد أمثلة لهذه المراعاة كى يؤكد على أن الفاصلة قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى ، لكنه جانبه الصواب فى التعليل لما أراد ، قال :

« ولقد تتوالى الفواصل فى آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أو متشابه ، وإنما توالى على رغم وحدة المعنى لفرض لولاه لأجزاء عن التوالى فاصلة واحدة. من ذلك أن المؤمنين هم بالضرورة موقنون ، لأنهم

١ - المرجع السابق ص ٢٨٤ .

لا يؤمنون إلا مع رسوخ اليقين بما آمنوا به وهم بالضرورة يعقلون ما
أيقنوا به ، لأن يقينهم لا يأتى إلا نتيجة تدبر ودلالة عقلية ، أى
« المؤمنون » « يوقنون » « ويعقلون » ومعنى هذه اللفاظ كما يتضح
متشابه إلى درجة قرب دلالتها من التوحد ، وهذه اللفاظ تتوالى فى موقع
الفاصلة فى قوله تعالى « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين
* وفى خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل
والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها
وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك
بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون * » (الجاثية ٣ - ٦) ،
ففى هذه الآيات القرآنية ذكر لبعض الآيات الكونية التى تدركها
الحواس ، ومن ثم كان من شأن إدراكها أن يؤدى إلى الإيمان واليقين
والاقتناع العقلى ، بأن الإبداع لا يكون بلا مبدع . فليس الإدراك
الحسى لآيات الكون إلا وسيلة موصلة إلى الحكم العقلى المؤدى إلى
اليقين والإيمان . (١)

ثم يقول فى النهاية :

ومعنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة القرآنية لا تدل بالضرورة على
تمام المعنى ، ومن ثم تصيح وظيفتها فى القرآن غير نحوية ولا دلالية .
فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوى ولا دلالى ، فماذا يكون الغرض
منها إذا ؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالى صرف وإن توافقت أحيانا
مع تمام المعنى . فالذى يبدو للوهلة الأولى عند النظر إلى الفاصلة أنها

١ - المرجع السابق ص ٢٨٤ .

قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى ، كما
ارتبط الإيقاع بذلك من قبلها . (١)

فالكلام من أوله خطأ وفى آخره تأكيد لهذا الخطأ ، إنه يقول فى
أوله (لقد تتوالى الفواصل فى آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أو
متشابه وإنما توالى لغرض لولاه لأجزاء عن التوالى فاصلة واحدة)
وهذا استدلال باطل .

فمن قال أن الفواصل المتتابعة فى الآيات التى استشهد بها من
سورة الجاثية معناها واحد أو حتى متشابه ؟ هل اليقين هو العقل ؟ وهل
العقل هو الإيمان ؟ وهل الإيمان هو اليقين ؟

ثم يتبع ذلك بقوله (فليس الإدراك الحسى لآيات الكون إلا وسيلة
موصلة إلى الحكم العقلى المؤدى إلى اليقين والإيمان) . ولو كانت
هذه الحقيقة على إطلاقها إذن لأسلم كل كفار العالم من العقلاء
وبلغوا بإيمانهم درجة اليقين !

ثم يقول : (.. ومعنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة لاتدل بالضرورة
على تمام المعنى ..) فهو قد خالف بهذه العبارة كل علماء البلاغة الذين
نزهوا الفاصلة القرآنية عن السجع ، لأن السجع إما أن يأتى سهلاً وتابعاً
للمعانى وإما أن يكون متكلفاً يتبعه المعنى ، والقرآن لم يرد فيه إلا ما هو
من القسم الأول لعلوه فى الفصاحة ، وعلى كلام أستاذنا الدكتور تمام
أن الفاصلة لاتدل بالضرورة على تمام المعنى فهى مخالفة صريحة لما فى
القرآن من الفواصل لأنها - تبعاً لكلامه - يكون فيها تكلف

١ - المرجع السابق ص ٢٨٥ .

والقرآن ليس فيه تكلف (١).

ولقد قال الزمخشري : (لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجرد ما إلا مع بقاء المعاني على سردها ، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتشامه ، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة ..) (٢)

فهو إذن يخالف الزمخشري ، وغير الزمخشري لأنه جعل الفاصلة وكأنها زائدة يمكن الاستغناء عنها لأن غيرها أدت معناها وإنما هي مستغلبة فقط لإضفاء ناحية صوتية جمالية فحسب مراعاة للفواصل .

ثانيا : المستوى الدلالي

هذا الدرس الدلالي للفواصل القرآنية يدخل تحت موضوع علم البديع ، وأول من اخترع هذا العلم وسماه بهذا الاسم عبد الله بن المعتز سنة أربع وسبعين ومائتين ، وكان قد جمع منه سبعة عشر نوعا وقال :

ما جمع قبلي فنون البديع أحد ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف ومن أراد أن يقتصر على ما اخترعناه فليعمل ، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره .

وجمع معاصره قدامة بن جعفر الكاتب عشرين نوعا في كتابه المعروف (بنقد قدامة) اتفق معه في سبعة وسلم له ثلاثة عشر ، فكان المجموع ثلاثين إذ ذاك . ثم اقتدى بهما كثير من الفضلاء : أولهم أبو

١ - المرجع السابق ص ٢٨٥ .

٢ - الاتقان للسيوطي ج ٣ / ٣٥٩ .

هلال العسكرى ، ثم ابن رشيق القيروانى ، ثم شرف الدين التيفاشى ، ثم جاء من بعدهم الشيخ عبد العزيز الملقب بالصفى الحلى وقد جمع مائة وواحدا وخمسين نوعا ، ثم جاء بعده الشيخ عز الدين الموصلى وزاد بعض أنواع ، ثم جاء بعده تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى .. ، ثم جاءت بعده الفاضلة عائشة الباعونية ثم تبعهم عبد الغنى التابلسى ، وما زال الفضلاء يؤلفون فى هذا العلم .. مع اختلاف المشارب فى تسمية النوع أو تعريفه .. إلى أن جاوز مائة وستين نوعا (١) .

ونحن نذكر من هذه الأنواع البديعية الآن أربعة أنواع تختص بها الفواصل القرآنية جمعها الإمام السيوطى فى كتاب « الاتقان » نقلا عن كلام السابقين من علماء البلاغة ؛ قال السيوطى :

قال ابن أبى الإصبع : لاتخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء : التمكين ، والتصدير ، والتوشيح ، والإيقال (٢) .

أولا : التمكين

فالتمكين - ويسمى التتلاف القافية - أن يمهد النائر للقرينة ، أو الشاعر للقافية ، تمهيدا تأتى به القافية أو القرينة متمكنة فى مكانها ، مستقرة فى قرارها مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم ، وبحيث لو سكنت عنها كمله السامع بطبعه .

١ - الشيخ أحمد الحمالوى ، زهر الربيع فى المائى والبيان والبيع ، ص ١٥٧ (بتصرف)

الطبعة السابعة ١٣٩١ - ١٩٧١ - مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر .

٢ - راجع : السيوطى ، كتاب الاتقان فى علوم القرآن الجزء الثالث ص ٣٤٥ .

ومن أمثلة ذلك « يا شعيب أصلواتك تأمرك أن تترك .. » (١)
الآية، فإنه لما تقلع في الآية ذكر العبادة ، وتلاه ذكر التصرف في
الأموال ، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب لأن الحلم يناسب
العبادات ، والرشد يناسب الأموال .

وقوله : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون
يمشون في مساكنهم إن في ذلك الآيات أفلا يسمعون » (٢) ، « أو
لم يروا أنا نسوق الماء إلى قوله : « أفلا يسمعون » فأتى في الآية
الأولى بـ « يهد لهم » ، وختمها بـ « يسمعون » ، لأن الموعظة فيها
مسموعة ، وهي أخبار القرون ، وفي الثانية بـ « سيروا » ، وختمها
بـ « يسمعون » لأنها مرئية .

وقوله : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »
(٣)

فإن اللطيف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبير يناسب ما يدركه .
وقوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » إلى قوله
« فتبارك الله أحسن الخالقين » (٤) ، فإن في هذه الفاصلة التمكين

١ - هود ٨٧ وبقية الآية (... ما يعيد آياتنا أو أن نفعل ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد) .

٢ - السجدة ٢٦ ، ٢٧ ، وبقية الآية ٢٧ (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض فنجريه
زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يسمعون) .

٣ - الأنعام ١٠٣ .

٤ - المؤمنون ١٢ - ١٤ وبقية الآيات (ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ،
فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ،
فتبارك الله أحسن الخالقين) .

التام المناسب لما قبلها . وقد بادر بعض الصحابة حين نزل أول الآية إلى ختمها بها ، قبل أن يسمع آخرها ؛ فأخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي ، عن زيد بن ثابت ، قال : أملئ على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله : ﴿ خلقا آخر ﴾ ، قال معاذ بن جبل : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : ثم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بهاختمت !

وحكى أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ ﴿ فإن زللتُم من بعد ما جاء تكُم الينيات ﴾ (١) « فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن فقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ، [ومريهما رجل فقال : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ فقال ، هكذا ينبغي] (٢) ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلزل ؛ لأنه إغراء عليه .

تنبيهات *

الأول : قد تجتمع فواصل في موضع واحد ؛ ويخالف بينها كأول النحل فإنه تعالى بدأ بذكر الأفلاك ، فقال ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ (٣) ثم ذكر خلق الإنسان من نطفة ، ثم خلق الأنعام ، ثم عجائب النبات ، فقال : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه

١ - البقرة ٢٠٩

* السيوطي ، الاتقان ج ٢ / ٢٤٧

٢ - زيادة من تفسير القرطبي يستقيم بها الكلام .

٣ - النحل آية ٣ .

شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون
والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم
يتفكرون ﴿ (١) ، فجعل مقطع هذه الآية التفكر؛ لأنه استدلال بحدوث
الأنواع المختلفة من النبات على وجود الإله القادر المختار ، ولما كان هنا
مظنة سؤال ، وهو أنه لم لا يجوز أن يكون المؤثر فيه طبائع الفصول
وحركات الشمس والقمر وكان الدليل لا يتم إلا بالجواب عن هذا
السؤال كان مجال التفكير والنظر والتأمل باقيا ، فأجاب تعالى عنه من
وجهين :

أحدهما : أن تغيرات العالم السفلى مربوطة بأحوال حركات
الأفلاك، فتلك الحركات كيف حصلت، فإن كان حصولها بسبب
أفلاك أخرى لزم التسلسل، وإن كان من الخالق الحكيم ، فذاك إقرار
بوجود الإله تعالى ، وهذا هو المراد بقوله ﴿ وسخر لكم الليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم
يعقلون ﴾ (٢) ، فجعل مقطع هذه الآية العقل ، وكأنه قيل : إن كنت
عاقلا ، فاعلم أن التسلسل باطل ، فوجب انتهاء الحركات إلى حركة
يكون موجدها غير متحرك ، وهو الإله القادر المختار .

والثاني : أن نسبة الكواكب والطبائع إلى جميع أجزاء الورقة
الواحدة والحبة الواحدة واحدة. ثم إنا نرى الورقة الواحدة من الورد أخذ
وجهيها في غاية الحمرة، والآخر في غاية السواد ؛ فلو كان المؤثر موجبا

١ - النحل آية ١٠ ، ١١ .

٢ - النحل آية ١٢ .

بالذات لامتنع حصول هذا التفاوت فى الآثار ؛ فعلمتنا أن المؤثر قادر مختار، وهنا هو المراد من قوله : ﴿ وما ذراً لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ (١) ، كأنه قيل : اذكر ما ترسخ فى عقلك أن الواجب بالذات والطبع لا يختلف تأثيره فإذا انظرت حصول هذا الاختلاف ، علمت أن المؤثر ليس هو الطبائع بل الفاعل المختار ، فلهذا جمل مقطع الآية التذكر .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتبل ما حرم ربكم عليكم ... ﴾ (٢) ، الآيات ، فإن الأولى ختمت بقوله ﴿ لعلمكم تعقلون ﴾ ، والثانية بقوله : ﴿ لعلمكم تذكرون ﴾ ، والثالثة بقوله : ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ ، لأن الوصايا التى فى الآية الأولى إنما يحمل على تركها عدم العقل الغالب على الهوى ، لأن الإشراك بالله لعدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الحى الكريم ، وكذلك إتيان

١ - النحل ١٣ .

٢ - الأنعام ١٥١ - ١٥٣ . وبقية الآيات :

﴿ ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالذى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فىخرفكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

الفواحش لا يقتضيه عقل ، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل ، فحسن بعد ذلك « يعقلون » ، وأما الثانية فلتعلقها بالحقوق المالية والقولية ، فإن من علم أن له أيتاما يخلفهم من بعده لا يليق به أن يعامل أيتام غيره إلا بما يجب أن يعامل به أيتامه ، ومن يكيل أو يزن أو يشهد لغيره لو كان ذلك الأمر له ، لم يجب أن يكون فيه خيانة ولا بخس ، وكان من وعد أو وعد ، لم يجب أن يخلف ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبر ذلك وتأمله ، فلذلك ناسب الختم بقوله « لعلمكم تذكرون » ، وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه وإلى عقابه ، فحسن « لعلمكم تتقون » ، أى عقاب الله بسببه .

ومن ذلك قوله فى الأنعام أيضا : « وهو الذى جعل لكم النجوم ... » (١) الآيات ، فإنه ختم الأولى بقوله « لقوم يعلمون » ، والثانية بقوله « لقوم يفقهون » ، والثالثة بقوله : « لقوم يؤمنون » ، وذلك لأن حساب النجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء بذلك ، فتاسب ختمه بـ « يعلمون » ، وإنشاء الخلائق من نفس واحدة ، ونقلهم من صلب إلى رحم ثم إلى الدنيا ، ثم إلى حياة أو موت ، والنظر فى ذلك

١ - الأنعام ٩٧ - ٩٩ . وبقية الآيات « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أغصاب والزيتون والرمان مشتها وغير مشابه ، فانظروا إلى ثمره إذا أمره وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

والفكر فيه أدق ، فناسب ختمه بـ « يفقهون » لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة ، ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك ، ناسب ختمه بالإيمان الداعى إلى شكره تعالى على نعمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴿ (١) ، حيث ختم الأولى بـ « تؤمنون » ، والثانية بـ « تذكرون » ووجهه أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لاتخفى على أحد ، فقول من قال : شعر ، كفر وعناد محض ، فناسب ختمه بقوله ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ . وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع فتحتاج إلى تذكر وتدبر ، لأن كلا منهما نثر ، فليست مخالفته له فى وضوحها لكل أحد كمخالفته الشعر ، وإنما تظهر بتدبر ما فى القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعانى الأنيقة ، فحسن ختمه بقوله : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ .

ومن يديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين فى موضعين والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة ، كقوله تعالى فى سورة إبراهيم ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٢) ، ثم قال فى سورة النحل : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ (٣) ، قال ابن المنير : كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة ، فأنت أخذها وأنا معطيها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : كونك ظلوما ، وكونك

٢ - الحاقة ٤١ ، ٤٢ .

٢ - إبراهيم ٣٤ .

٣ - النحل ١٨ .

كفارا، يعنى لعدم وفائك بشكرها، ولى عند اعطائها وصفان وهما : إني غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفرانى ، وكفرك برحمتى ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير، ولا أجازى جفاك إلا بالوفاء.

وقال غيره : إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه ، وسورة النحل بوصف المنعم ؛ لأنه فى سورة إبراهيم فى مساق وصف الإنسان ، وفى سورة النحل فى مساق صفات الله وإثبات لألوهيته .

ونظيره قوله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (١) ، وفى فصلت ختم بقوله : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (٢) ، ونكتة ذلك أن قبل الآية الأولى ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ﴾ (٣) ، فناسب الختام بفاصلة البعث لأن قبله وصفهم بإنكاره ، ومأما الثانية والختام فيها مناسب ، لأنه لا يضيع عملا صالحا ، ولا يزيد على من عمل سيئا .

وقال فى سورة النساء : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ (٤) ، ثم أعادها ، وختم بقوله : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا ﴾ (٥) ، ونكتة ذلك أن الأولى نزلت فى اليهود ، وهم الذين افتروا

١ - الجاثية ١٥ .

٢ - فصلت ٤٦ .

٣ - الجاثية ١٤ .

٤ - النساء ٤٨ .

٥ - النساء ١١٦ .

على الله ما ليس في كتابه، والثانية نزلت في المشركين ولا كتاب لهم وضلالهم أشد .

ونظيره قوله في المائة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (١) ، ثم أعادها فقال : ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ (٢) ، ثم قال في الثالثة : ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٣) ، ونكتته أن الأولى نزلت في أحكام المسلمين ، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، وقيل : الأولى فيمن جحد ما أنزل الله، والثانية فيمن خالفه مع علمه ولم ينكره، والثالثة فيمن خالفه جاهلا . وقيل : الكافر والظالم والفاسق كلها بمعنى واحد، وهو الكفر، عبّر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة، واجتناب صورة التكرار .

وعكس هذا اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف ، كقوله في سورة النور : ﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ ، إلى قوله ﴿ كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ (٤) ، ثم قال : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك بين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴾ (٥) .

التيه الثاني : من مشكلات الفواصل قوله تعالى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٦) . فإن قوله : ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ يقتضى أن تكون الفاصلة « الغفور الرحيم » وكذا

٢ - المائة ٤٥ .

٤ - النور ٥٨ .

٦ - المائة ١١٨ .

١ - المائة ٤٤ .

٣ - المائة ٤٧ .

٥ - النور ٥٩ .

نقلت عن مصحف أبيّ وبها قرأ ابن شنبوذ ، وذكر في حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز أى الغالب ، والحكيم هو الذى يضع الشيء فى محله . وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء فى بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها ، وليس كذلك ، فكان فى الوصف بالحكيم احتراص حسن ، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد فى ذلك ، والحكمة فيما فعلته .

ونظير ذلك قوله فى سورة التوبة : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) وفى سورة الممتحنة : ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٢) ، وفى غافر : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ (٣) ، إلى قوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٣) وفى النور : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾ (٤) ، فإن بادىء الرأى يقتضى « تواب رحيم » لأن الرحمة مناسبة للتوبة لكن عبّر به إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته ، وهى الستر عن هذه الفاحشة العظيمة .

ومن خفى ذلك أيضا قوله فى سورة البقرة : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾ (٥) ، وفى آل عمران : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير ﴾ (٦) ، فإن المتبادر إلى الذهن فى آية البقرة

٢ - الممتحنة ٥ .

٤ - النور ١٠ .

٦ - آل عمران ٢٩ .

١ - التوبة ٧١ .

٣ - غافر ٨ .

٥ - البقرة ٢٩ .

الختم بالقدرة ، وفى آية آل عمران الختم بالعلم والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض ، وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم ، وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت ، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا ، مجملا ومفصلا ، ناسب ختمها بصفة العلم ، وآية آل عمران لما كانت فى سياق الوعيد على موالاة الكفار ، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ، ناسب ختمها بصفة القدرة .

ومن ذلك قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (١) . فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر فى بادىء الرأى وذكر فى حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبح ولا عصيان فى حقها وأنتم تعصون ، ختم به مراعاة للمقدر فى الآية وهو العصيان ، كما جاء فى الحديث : « لولا بهائم رُتِعَ وشيوخ رُكِعَ ، وأطفال رُضِعَ ، لصبَّ عليكم العذاب صبّا * » .

وقيل : التقدير : حليما عن تفريط المسبحين ، غفورا لذنوبهم ، وقيل حليما عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح بإهمالهم النظر فى الآيات والعبر ليعرفوا حقه بالتأمل فيما أودع فى مخلوقاته مما يوجب تنزيهه .

التبيه الثالث : فى الفواصل مالا نظير له فى القرآن ، كقوله عقب الأمر بالنقض فى سورة النور : ﴿ إن الله خبير بما

١ - الإسراء آية ٤٤ .

(*) اضافت طبعه الشيخ عثمان عبد الرازق ٢ : ١٠٧ : بعد ذلك « ولرس رصا » .

يصنعون ﴿ (١) ، وقوله عقب الأمر بالدعاء والاستجابة : ﴿ لعلمهم يرشدون ﴾ (٢) .

وقيل : فيه تعريض لبليلة القدر حيث ذكر عقب ذكر رمضان ، أى لعلمهم يرشدون إلى معرفتها .

ثانيا : (التصدير)

وأما التصدير فهو أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت فى أول الآية ، وتسمى أيضا رد العجز على الصدر .

وقال ابن المعتز : هو ثلاثة أقسام :

الأول : أن يتوافق آخر الفاصلة ، آخر كلمة فى الصدر ، نحو ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا ﴾ (٣) .

والثانى : أن يتوافق أول كلمة منه : نحو ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ (٤) ، ﴿ قال إني علمكم من القالين ﴾ (٥) .

الثالث : أن يوافق بعض كلماته ، نحو ﴿ ولقد استهزىء برسلى من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٦) ، ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ (٧) .

٢ - البقرة ١٨٦ .

٤ - آل عمران ٨ .

٦ - الأنعام آية ١٠ .

١ - النور ٣٠ .

٣ - النساء ١٦٦ .

٥ - الشعراء ١٦٨ .

٧ - الإسراء آية ٢١ .

ثالثا : التوشيح

وأما التوشيح فهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية ، والفرق يشه وبين التصدير أن دلالة معنوية وذاك لفظية ، كقوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » - آل عمران آية ٣٣ -

فإن « اصطفى » لا يدل على أن الفاصلة « العالمين » لا باللفظ ، لأن لفظ « العالمين » غير لفظ « اصطفى » . ولكن بالمعنى ، لأنه يعلم أن من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختارا على جنسه وجنس هؤلاء المصطفين العالمون .

وكقوله : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » قال ابن أبي الإصبع :

فإن كان حافظا لهذه السورة متفطنا إلى أن مقاطع آياتها النون المردفة ، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة « مظلمون » لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ، أي دخل في الظلمة ، ولذلك سمي توشيحاً لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشع اللذين يحول عليهما الوشاح (١) .

رابعاً : الإيغال (١)

هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، وزعم بعضهم أنه خاص بالشعر ، وردّ بأنه وقع في القرآن من ذلك : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسالكم أجرا وهم مهتدون ﴾ - يس - ٧ .
فقوله « وهم مهتدون » إيغال لأنه يتم المعنى بدونه إذ الرسول مهتدٍ لا محالة لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه .
وجعل ابن أبي الإصبع منه ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ فإن قوله إذا « ولوا مدبرين » زائد على المعنى لمدح المؤمنين والتعريض بالذم لليهود ، وأنهم بعيدون عن الإيقان ﴿ إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ ، فقوله (مثلما) إلى آخره إيغال زائد على المعنى لتحقيق هذا الوعد وأنه واقع معلوم ضرورة لا يرتاب فيه أحد .

١ - السيوطي، الإيقان في علوم القرآن ج ٣ / ٢٤٩ - ٢٥٠ .

فصل *

(فى أقسام الفواصل)

قسّم البديعيون السجع، ومثله الفواصل إلى أقسام : مطرف ، ومتواز
ومرصع ، ومتوازن، ومتماثل .

فالمطرف : أن تختلف الفاصلتان فى الوزن وتتفقا فى حروف
السجع، نحو :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا ﴾ (١) .

والموازى : أن يتفقا وزنا وتقفية ، ولم يكن ما فى الأولى مقابلا لما
فى الثانية فى الوزن والتقفية ، نحو : ﴿ فيها سر مرفوعة * وأكواب
موضوعة ﴾ (٢) .

والمتوازن : أن يتفقا فى الوزن دون القافية ، نحو :

﴿ ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾ (٣) .

والمرصع : أن يتفقا وزنا وتقفية ، ويكون ما فى الأولى مقابلا لما فى
الثانية كذلك ، نحو : ﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾ (٤) .
﴿ إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم ﴾ (٥) .

والمتمائل : أن يتساويا فى الوزن دون التقفية ، وتكون أفراد الأولى

* السيوطى ، الإنقان ج ٢ / ٢٥١ وما بعدها .

٢ - الناشية ١٣ ، ١٤ .

١ - نوح ١٣ ، ١٤ .

٤ - الناشية ٢٥ ، ٢٦ .

٣ - الناشية ١٥ ، ١٦ .

٥ - الانفطار ١٣ ، ١٤ .

مقابلة لما فى الثانية، فهو بالنسبة إلى الموضع كالموازن بالنسبة إلى المتوازى ، نحو :

﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ (١) .

فالكتاب والصراط يتوازنان وكذا المستبين والمستقيم ، واختلفا فى الحرف الأخير .

فصل

بقى نوعان بديعيان متعلقان بالفواصل :

أحدهما : التشريع ، وسمّاه ابن أبى الإصبع : التوعم ، وأصله أن يبنى الشاعر بيته على وزن من أوزان العروض ، فإذا أسقط منها جزءا أو جزءين صار الباقي بيتا من وزن آخر، ثم زعم قوم اختصاصه به .

وقال آخرون : بل يكون فى النشر بأنه يكون مبنيا على سجتين لو اقتصر على الأولى منهما كان الكلام تاما مفيدا . وإن ألحقت به السجعة الثانية كان فى التمام ، والإفادة على حاله مع زيادة معنى ما زاد من اللفظ .

قال ابن أبى الإصبع : وقد جاء من هذا الباب معظم سورة الرحمن؛ فإن آياتها لو اقتصر فيها على أولى الفاصلتين دون ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (٢) ، لكان تاما مفيدا وقد كمل بالثانية ، فأفاد معنى زائدا من التقرير والتوبيخ .

١ - الصافات ١١٧ ، ١١٨ .

٢ - الرحمن آية ١٨ .

قلت : التمثيل غير مطابق ، والأولى أن يمثل بالآيات التي في إثباتها ما يصلح أن تكون فاصلة ، كقوله : « لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » (١) ، وأشباه ذلك .

الثاني : الالتزام ، ويسمى لزوم مالا يلزم ، وهو أن يلتزم في الشعر أو النثر حرف أو حرفان فصاعدا قبل الروى بشرط عدم الكلفة . مثال التزام حرف « فأما اليتيم فلا تقهر » * وأما السائل فلا تنهر » (٢) التزم الهاء قبل الراء ، ومثله « ألم نشرح لك صدرك » (٣) ، الآيات التزم فيها الراء قبل الكاف ، « فلا أقسم بالغنص * الجوار الكنس » (٤) التزم فيها النون المشددة قبل السين . « والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق » (٥) .

ومثال التزام حرفين « والطور * وكتاب مسطور » (٦) « ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون » (٧) ، « بلغت التراقي * وقيل من راق * وظن أنه الفراق » (٨)

ومثال التزام ثلاثة أحرف « تذكروا فإذا هم مبصرون * واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » (٩) .

-
- | | |
|-----------------------|-------------------------|
| ١ - الطلاق ١٢ . | ٣ - الشرح ١ . |
| ٢ - الضحى ٩ ، ١٠ . | ٥ - الإنشاق ١٧ ، ١٨ . |
| ٤ - التكويم ١٥ ، ١٦ . | ٧ - القلم ٢ ، ٣ . |
| ٦ - الطور ١ ، ٢ . | ٩ - الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ . |
| ٨ - القيامة ٢٦ - ٢٨ . | |

تنبيهات

الأول : قال أهل البديع : أحسن السجع ونحوه ما تساوت قرائته ،
نحو :

﴿ فى سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود ﴾ (١) ،
وبليه ما طالت قرينته الثانية ، نحو : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل
صاحبكم وما غوى ﴾ (٢) أو الثالثة نحو : ﴿ خلدوه فغلوه * ثم
الجميم صلوه * ثم فى سلسلة ... ﴾ (٣) . الآية ...

الثانى : قالوا أحسن السجع ما كان قصيرا لدلالته على قوة المنشئ
، وأقله كلمتان نحو ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر .. ﴾ (٤) الآيات ،
والمرسلات عرفا .. ﴿ (٥) الآيات ﴿ والداريات ذروا .. ﴾ (٦) الآيات
، ﴿ والعاديات ضبحا .. ﴾ (٧) الآيات ، والطويل ما زاد عن العشر ،
كغالب الآيات ، وما بينهما متوسط كآيات سورة القمر .

الثالث : قال الزمخشري فى كشفه القديم : لا تحسن المحافظة على
الفواصل لمجرد ما إلا مع بقاء المعانى على سردها ، على المنهج الذى
يقتضيه حسن النظم والتأمة ، فأما أن تهمل المعانى ويهتم بتحسين اللفظ
وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة ، ونرى على ذلك
أن التقديم فى ﴿ وبالأخرة هم يوقنون ﴾ (٨) ، ليس لمجرد الفاصلة ، بل

- | | |
|-----------------------|--------------------|
| ١ - الواقعة ٢٨ - ٣٠ . | ٢ - النجم ١ ، ٢ . |
| ٣ - الحاقة ٣٠ - ٣٢ . | ٤ - المدثر ١ ، ٢ . |
| ٥ - المرسلات ١ . | ٦ - الداريات ١ . |
| ٧ - العاديات ١ . | ٨ - البقرة ٤ . |

لرعاية الاختصاص .

الرابع : مبنى الفواصل على الوقف ، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس ، كقوله : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ مع قوله : ﴿ عذاب واصب ﴾ و ﴿ شهاب ثاقب ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ بماء منهمر ﴾ مع قوله : ﴿ قد قدر ﴾ ، ﴿ دسر ﴾ ، ﴿ مستمر ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ مع قوله : ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ (٣) .

الخامس : كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين والحق النون وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون ؛ لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع .

السادس : حروف الفواصل إما متماثلة وإما متقاربة :

فالأولى مثل ﴿ والطور ﴾ وكتاب مسطور * في رق منشور * والبيت المعمور ﴾ (٤) .

والثاني مثل ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ مالك يوم الدين ﴾ (٥) ، ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا

٢ - القمر ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ .

٤ الطور ١ - ٤ .

١ - الصافات ٩ - ١١ .

٣ - الرعد ١١ ، ١٢ .

٥ - الفاتحة ٣ ، ٤ .

شيء عجيب ﴿ (١) 》 .

السابع : كثر في الفواصل التضمن والإبطاء لأنهما ليسا بعيين في النشر ، وإن كانا عيبين في النظم ، فالتضمن أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقا بها ، كقوله تعالى : ﴿ وانكم لتمرون عليهم مصبحين ﴾ وبالليل ﴿ (٢) 》 ، والإبطاء تكرر الفاصلة بلفظها كقوله تعالى في الإسراء : ﴿ هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ ﴿ (٣) 》 . وختم بذلك الآيتين بعدها . ﴿ (٤) 》

ثالثا - المستوى الصوتي

النظام الصوتي للقرآن *

نريد بنظام القرآن الصوتي ، اتساق القرآن واتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته ، واتصالاته وسكناته ، اتساقا عجيبا ، واتلافا رائعا يسترعى الأسماع ويستهوئ النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور . وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، وهي مرسله على وجه الساذجة في الهواء ؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع بعيدا عن القارئ المجود ، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض ، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات

١ - ق ١ ، ٢ .

٢ - الصافات ١٣٧ ، ١٣٨ . ٣ - الإسراء ٩٣ .

٤ - السيوطي ، الاتقان ج ٣ / ٢٥٢ وما بعدها .

* راجع ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان ، ج ٢ / ٣٠٩ ، ٣١٠ .

والغنائات ، والحركات والسكنات ، والانصالات والسكتات ، نقول : إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر ، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها ، والطبع أن يمجها ، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت ، على نمط يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل ، لأنه يتقل فيه دائما بين ألحان متنوعة ، وأنغام متجددة ، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب ، وأعصاب الأفتدة .

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي ، هو أول شيء أحسنه الآذان العربية أيام نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منشور الكلام ، سواء أكان مرسلا أم مسجوعا ، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر ، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجييعه لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجييع هزة ، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر ، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا ، حتى قال قائلهم - وهو الوليد ابن المغيرة - : « وما هو بالشعر » معللا ذلك بأنه ليس على أعاريض (١) الشعر في رجزه (٢) ولا في قصيده . بيد

١ - جمع عروض على غير قياس كأنهم جمعوا عريضا . وهو ميزان الشعر أو الجزء الذي في آخر النصف الأول من البيت . مختار .

٢ - الرجز ضرب من الشعر وزنه مستفعلن ست مرات . وزعم الخليل أنه ليس بشعر إنما هو أنصاف أبيات أو ثلثات ؟ قاموس .

أنه تورط فى خطأ أفحش من هذا الخطأ ، حين زعم فى ظلام العناد والحيرة أنه سحر ، لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته ، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما فى نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية ، بين إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه . ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام مثبور ولكنه معجز ليس كمثله كلام ، لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء . وما هو بالشعر ولا بالسحر ، لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه ، والقرآن ليس منه ، ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة ، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها ، إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه ، وقد نشأ فيهم وشب وشاب بينهم . هذا إلى أن القرآن كله ، وما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة ، لا محل فيها إلى خبث ورجس ، بل هى تحارب السحر وخبثه ورجسه ، وتسمه بأنه كفر ، إذ قال : « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر * وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل ، فليس بمعجز ، ولا يمكنه ولن يمكنه أن يأتى فى يوم من الأيام بمثل هذا الذى جاء به القرآن .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا يعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (بكسر القاف وفتح الباء) . قال الوليد : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك

منكر له وكاره . قال وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم من رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا قصيده ولا بأشعار الجبر . والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا . والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمينير أعلاه ، مشرق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلو ؛ وإنه ليحطم ما تحته ! قال أبو جهل للوليد : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال الوليد : دعني أفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يأتبه عن غيره . وفي ذلك نزل قوله تعالى « ذرني ومن خلقت وحيدا » * وجعلت له مالا ممدودا وبين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سارقه صعدوا * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري . فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجيته العرية ، وبديعتها الفطرية كيف أنصف في حكمه ، حين تجرد ساعة من عناده وكفره ، وقال : والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا إلى أن قال : وإنه ليحطم ما تحته . ثم انظر إلى الرجل حين غلبت عليه شقوته ، وعأوده عناده وتعصبه ، كيف قاوم فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل مذهب في ضلاله وحيرته ، على نحو ما يصور القرآن تلك الحيرة والمقاومة والاستكراه بقوله :

« إنه فكر وقدر » الخ . نسأل الله الحماية والهداية بمنه وكرمه . آمين (١) .

* الجمال اللغوى للقرآن *

وريد بجمال القرآن اللغوى تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى وصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس فى كلامهم. وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة فى وصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض فى الكلمات والآيات هذا ينقر وذاك يصفر. وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر فى باب مخارج الحروف وصفاتها فى علم التجويد . ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس فى هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة ، الجامعة بين اللين والشدة ، والخشونة والركة ، والجهر والخفية ، على وجه دقيق محكم ، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة فى موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظى مدهش ، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة فى غير خشونة ، برقة الحضارة من غير ميوعة ، ولاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة . ولقد وصل هذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل فى القرآن شئ من كلام الناس لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى وذاك النظام الصوتى ، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى : وذلك أن من شأن الجمال الغوى والنظام الصوتى ، أن

* المصدر السابق ص ٣١٢ .

يسترعى الأسماع، ويشير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان ،
إلى هذا القرآن الكريم : وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق
وفي آذانهم ، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم ، فلا يجرؤ أحد على تغييره
وتبديله مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون ﴾ (١)

٢ - عبد العظيم الزرقاني ، متاعل العرفان ج ٢ / ٣١٢ ، ٣١٣ .

إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن

تناول الأستاذ الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن ، موضوع الحروف العربية وأصواتها وفيه أشار إلى هذا الضرب من ضروب الإعجاز فى القرآن فقال :

(كان منطق القوم يجرى على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها ، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة التبرات الموسيقية المرسلة فى جملتها كيف اتفقت ، فلا بد لها مع ذلك من نوع فى التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً ، ويتألف منها شئ مع شئ ، فتداخل خواصها ، وتجتمع صفاتها ، ويكون منها اللحن الموسيقى ، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتى الذى يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده .

فكان العرب يترسلون أو يحذمون (١) فى منطقهم كيفما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت ؛ دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت ، إلى أن يتفق من هذه قطع فى كلامهم يتجىء بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم ، على نمط منالنظم الموسيقى ، إن لم يكن فى الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية .

فلما قرئ عليهم القرآن ، رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جملة ، ألحانا لغوية رائعة ؛ كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها (٢) فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ،

١ - يقال : حزم فى قراءته ، إذا أسرع .

٢ - كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية ، لا يرون فى الفن العربى بجملة شئما يعدل هذا التناسب الذى هو طبيعى فى كلمات القرآن وأصوات حروفها ، وما منهم من يستطيع أن يقتصر فى ذلك حرفاً واحداً ، ويعلق القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى . (الرافعى ، إعجاز القرآن ص ١٦٨) .

وكان ذلك أبين في عجزهم ؛ حتى إن من عارضه منهم ، كمسيلمة ، جئح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسبتها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ؛ وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع .

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن ، مما تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء ، فإنك لا بد ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن ، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرت الكلام وغيرته ، فأخرجته من صفة الفصاحة ، وجردته من زينة الأسلوب ، وأطفأت روائه ؛ وأنضبت مائه ، لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها في كل جهاته ، فلا تعدو أن تظهر من عيبه مالم يكن بعيبه إذا أنت أرسلته في نهجه وأخذته على جملته . (١)

وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن ، وأنه مما لا يتعلق به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر ، والشدّة والرخاوة والتفخيم والترقيق ؛ والتفشي والتكرير ، وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف من باب اللغة في تاريخ آداب العرب . (٢)

ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباع البلغاء بعد

١ - مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن ص ١٦٩ .

٢ - يشير الرافعي إلى كتاب « تاريخ آداب العرب » له .

الإسلام، تولى تربية الذوق الموسيقى اللغوى فيهم ، حتى كان لهم من محاسن التركيب فى أساليبهم - مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف - ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم ، وحتى خرجوا عن طرق العرب فى السجع والترسل على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف فى نظمها آثار الوزن والتلحين ، على ما يكون من تفاوتهم فى صفة ذلك ومقداره، ومبلغهم من العلم به ، وتقدمهم فى صنعته .

ولولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب ، لذهب العرب بكل فضيلة فى اللغة ، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقى من بعد هؤلاء فى العامة ، بل لما بقيت اللغة نفسها ، كما بسطناه فى موضعه (١) .

وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنوع الصوت ، بما يخرج فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيم له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ؛ أو الإطناب والبسط ؛ بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى (٢) .

فلو اعتبرنا ذلك فى تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها فى هز الشعور واستثارته من أعماق النفس ؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى (٣) ،

١ - المرجع السابق والصفحة .

١ - المرجع السابق ص ١٧٠

حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيف والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم ، لثلين قلوبهم وتهتز عند سماعه ، لأن فيهم طبيعة إنسانية ، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة ، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان ، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان ؛ وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن في الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يعد نقصا منه إذا لم تجتمع أسباب الأداء في أصوات الحروف ومخارجها ، وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت ، وتنوع طبقته ، واستقامة وزنه على كل حرف .

موسيقى الفواصل : *

وما هذه الفواصل التي تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن ، فإن لم تنته بواحدة من هذه ، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى ، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع

* مصطفى صادق الرافى ، إعجاز القرآن ، ص ١٧٠ .

القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى .

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ، وأثرها طبيعي في كل نفس ، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللا بينها ، أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة ، وفي حس السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرايت لذلك هجنة في السمع كالذى تنكره من كل مرثى لم تقع أجزاءه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكرة . (١)

ومما انفرد به القرآن وبأين سائر الكلام ، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار ، ولا تمل منه الإعادة ، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه ، رأيت غضا طريا ، وجديدا موقنا ، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا ، وهذا أمر يستوى في أصله العالم الذى يتذوق الحروف ويستمرى تركيبها ويمعن في لذة نفسه من ذلك ، والجاهل الذى يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات

١ - المرجع السابق ص ١٧٢ .

الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه وورقة نفسه. وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملاً صدر المفكر، ولا نرى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيراً إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً، وابتداءً ورداً، وإفراداً وتكريراً.

هذا على أنه ترسيل واتساق وتطويل، لا يضبط بحركات وسكنات كأوزان الشعر فتجعل له بطبيعتها صفة من النظم الموسيقي، ولا يخرج على مقاطع الكلمات التي تجرى فيها الألحان وضروب النغم، مما يسهل تأليفه ويكون أمره إلى الصوت وطريقة تصريفه وتوقيعه، لا إلى أصوات الحروف ووجه تأليفها وتتابعها فيحسن مع أهل الصناعة وإن كانت حروفه غثة التركيب سمجة المخارج وكانت جافية كثة، حتى إذا صار إلى من لا يحسن أن يوقع عليه الصوت ويتردد له اللحن من غير خذاق المغنين، خرج أبرد كلام وأرذله وأسمجه. وجاء وما تعرف من الكلال والفتور والتهالك في كلام أكثر مما تعرف منه (١).

ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى في الوضع والتركيب مجرى الحروف لنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان،

١ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن ص ١٧١، ١٧٢.

فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان ، واكتفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة (١).

من ذلك لفظة (النذر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن جساءة هذا الحرف ونبوه في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام . فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه ؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتهى من طبيعته في قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » ، فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) ، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا) ، مع الفصل بالمد ، كأنها تثقل لخفة التابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة . ثم ردد نظرك في الرائ من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تتبوه فيه ، ثم أعجب لهذه الغنة التي

١ - المرجع السابق نفسه .

سبقت الطاء فى نون (أنذرهم) وفى ميمها ، وللغنة الأخرى التى سبقت الذال فى (النذر) .

وما من حرف أو حركة فى الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً فى موقعة والقصد به ، حتى ما تشك أن الجهة واحدة فى نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة ، ليس منها إلا ما يشبه فى الرأى أن يكون قد تقدم فيه النظر وأحكمته الرؤية وراضه اللسان ، وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات ، وأين هذا ونحوه عند تعاطيه ومن أى وجه يلتبس وعلى أى جهة استطاع ، وكيف يأتى للإنسان فى مثل تلك الآية وحدها - فضلاً عن القرآن كله - وهو لا يكون إلا عن نظر وصنعة كلامية ؟ والبليغ من الناس متى اعتسف هذا الطريق ولم يكن فى الكلام إلى سجيته وطبعه فقد خذله البلاغة واستهلكته الصنعة ، وضاق به التصرف وتناثرت أجزاء كلامه من جهاتها ، وكلما لج فى المكابرة لجت البلاغة فى الإباء ، فمثله كمن يمشى مستديراً ويحسب أنه يتقدم ، لأنه - زعم - لم يحرف وجهه ولم ينفتل عن قصده ، ولأن نظره ما يزال ثابتاً فيما يستقبله !

إنما تلك طريقة فى النظم قد انفرد بها القرآن ، وليس من بليغ يعرف هذا الباب إلا وهو يتحاشى أن يلم به من تلك الجهة أو يجعل طريقة عليها ، فإن اتفق له شئ منه كان إلهاماً ووحياً ، لا تقتحم عليه الصناعة ولا يتيسر له الطبع بالفكر والنظر ، (١) وكان مع ذلك لا يخلو

١ - المرجع السابق ص ١٧٨ .

من التواء ومن مغمز ، على أنه يكون جملة من فصل أو عبارة من جملة أو بيتا من قصيدة أو شطرا من بيت ، لا يطرده ولا يستوى وليس إلا أن يتفق اتفاقا ؛ أما أن يتهيا لأحد من البلغاء في عصور العربية كلها من معارض الكلام وألفاظه ، ما يتصرف به هذا التصرف في طائفة أو طوائف من كلامه ، على أن يضرب بلسانه ضربا موسيقيا ، وينظم نظما مطردا ، ويهدف الكلمة الكلمة وينصب الحرف للحرف ، ويعصب الحركة بالحركة ، ويجرى بعضا من بعض - فهذا إن أمكن أن يكون في كلام ذي ألفاظ ، فليس يستقيم في ألفاظ ذات معان ، فهو لغو من إحدى الجهتين ، ولو أن ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرنا ، ونحن اليوم في القرن الرابع عشر من تاريخ تلك المعجزة .

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجا سريا ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقا وأخفها تركيبا ، إذ تراه قد هيا لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها ، كقوله : « ليستخلفنهم في الأرض » فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات ؛ إذ تنطق على أربعة مقاطع ، وقوله : « فسيكفيهم الله » فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها .

وهذا إنما هو الألفاظ المركبة التى ترجع عند تجريدتها من الزوائد إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية ، أما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه فى القرآن شىء ، لأنه مما لا وجه للعدوية فيه ، إلا ما كان من اسم عرب ولم يكن فى الأصل إلا أن يتخلله المد كما ترى ؛ فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان . (١)

وفى القرآن لفظة غريبة هى من أغرب ما فيه ، وما حسنت فى كلام قط إلا فى موقعها منه ، وهى كلمة « ضيزى » من قوله تعالى : « تلك إذن قسمة ضيزى » (٢) ، ومع ذلك فإن حسننها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ؛ ولو أدركت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ؛ فإن السورة التى هى منها وهى سورة النجم ، مفصلة كلها على الباء ؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هى فى معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات (٣) ، فقال تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى » فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة التطق بها الإنكار فى الأولى والتهكم فى الأخرى ؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين

١ - المرجع السابق ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

٢ - يقال : ضازه حقه وضامه ، أى منعه ونقصه ، فهى قسمة جائرة ، والضيز : الجور .

٣ - أى دفنهن على الحياة ، كما كان من عادتهم .

المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار
بغرابتها اللفظية .

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر في لغتهم ،
وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها ، ولا يكون حسنها
على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذى سبقت له بلفظها وهيئة منطقتها ،
فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا ، وفي تألف أصواتها معنى مثله في
النفس .

وإن تعجب فمأجب لنظم هذه الكلمة الغريبة واتلافه على ما قبلها،
إذ هي مقطعان : أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت
عقب غنتين في « إذن » و « قسمة » وإحداهما خفيفة حادة ،
والأخرى ثقيلة متفشية ، فكانها بذلك ليست إلا مجاوزة صوتية لتقطيع
موسيقى . وهذا ، معنى رابع للثلاثة التى عددناها آنفا ، أما خامس هذه
المعاني ، فهو أن الكلمة التى جمعت المعاني الأربعة على غرابتها، إنما
هى أربعة أحرف أيضا (١) .

الإيقاع فى فواصل الآيات :

علمنا أن الفواصل فى القرآن الكريم هى بإزاء ورود الأسجاع فى
كلام العرب ، والسجع لا يكون مستمرا على نمط واحد لما فى ذلك من
التكلف ، كذلك لم تجيء الفواصل كلها فى القرآن على نمط واحد،
بل جاءت متفقة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى.

١ - مصطفى صادق الرافعى ، إعجاز القرآن ص ١٨٠ - ١٨١ .

وموسيقا السجع لا تلتزم تفعيلة ولا تتبع بحرا من بحور الشعر، وإن كان بعض الآيات تتفق مع أوزان شعرية ، لكنها لا تؤلف فيما بينها أبياتا شعرية ولا حتى بيتا واحدا .

قال ابن الأثير في المثل السائر :

« إن أكثر القرآن مسجوع، حتى أن السورة لتأتى جميعها والاختصار، والسجع لا يأتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار. فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب .

وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع . ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا ، (١) .

معنى الإيقاع :

الإيقاع فى اللغة معناه اتفاق الصوت فى الغناء (٢) ، ولكننا نعنى به هنا إحساس الأذن والنفس بتناغم الصوت الحاصل من قراءة الآيات ولقد حاول الدكتور تمام حسان أن يبين معنى الإيقاع عن طريق شرح المقاطع اللغوية والنبر وانتهى فيه إلى أن الإيقاع إما إيقاع فى نطاق التوازن وإما فى نطاق الموزون ، والوزن فى العربية إنما يكون للشعر، والذي فى القرآن متوازن لا موزون (٣) .

١ - ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، القسم الأول ص ٢١٤ بتعليق د / احمد الحوفى ، د / بدوى طبانة طبع نهضة مصر .

٢ - المعجم الوجيز .

٣ - د / تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ، دراسة أسلوبية للنص القرآنى من ص ٢٦٩ .

وهذا لايعنى أن القرآن ليس فيه إيقاع من النوع الموزون فقد انتقى الشهاب الخفاجي من العبارات القرآنية ما أمكن أن يطوَّعه للوزن الشعري وبنى من ذلك منظومة ضبط بها كميات البحور وتفعيلاتها على هذه العبارات القرآنية الموزونة ليسهل على المتعلم تذكر التفعيلات ومسميات البحور نذكر منها :

١ - قال في تحديد كمية بحر الطويل :

أطال عزولي فيك كفرانه الهوى وأمنت يا ذا الظبي فأنس ولا تنفر
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
٢ - وقال في البسيط :

إنى بسطت يدي أدعو على فئة لاموا عليك عسى تخلو أماكنهم
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم
٣ - وقال في المديد :

يا مديد الهجر هل من كتاب فيه آيات الشفا للسقيم
فاعلاتن فاعلن فاعلاتن تلك آيات الكتاب الحكيم
٤ - وقال في المتقارب :

تقارب وهات اسقني كأس راح وباعد وشاتك بعد السماء
فعولن فعولن فعولن فعولن وإن يستغيثوا يغاثوا بماء
فأنت ترى أنه يستشهد بكلمات من القرآن ، والقرآن ليس فيه مما هو موزون ما يؤدي بيت شعر كامل ، فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر ، والذي في القرآن إيقاع متوازن (١) .

١ - راجع ، د/ تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، ص ٢٦٩ .

ويقول الدكتور تمام :

« أن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التي تصلح أن تكون مجالا للفن والجمال. أما الوزن فبحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفي أن تنصت إلى صوت قارئ مجيد يرتل القرآن الكريم (ولا أقصد ترتيل التطريب بل الترتيل بدون تطريب) وسترى عندئذ أن ما فى القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن. وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل - وبخاصة ما بنى منها على قصار الجمل - وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك ، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح مالا تجده فى بعض الشعر والغناء » .

« وكلما تقاربت أعداد المقاطع بين النبرين (١) أو انتظم اختلاف بعضها عن بعض حسن إيقاعها والعكس صحيح، بمعنى أن هذه الكميات بين نبر وآخر إذا تباينت ولم تتقارب أحس السامع كأن المتكلم يتعثر فى مشيته، بل إن المتكلم نفسه لابد أن يحس هذا الإحساس . أما هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذى تجده فى إيقاع الأسلوب القرآنى كما يتضح مما يلى من الشواهد وقد تم اختيار هذه النماذج اعتباطا، فيصدق على غيرها من آيات القرآن ما يصدق عليها (٢) :

١ - « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط

١ - النبر معناه كما بينه الدكتور تمام : هو الصوت الذى يتم عنده الانتقال من طبقة صوتية إلى طبقة صوتية أخرى .

٢ - المصدر السابق ، البيان فى روائع القرآن ص ٢٧٠ .

بالكافرين ﴿ (البقرة ١٩) .

٢ - ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ (البقرة ٢٢) .

٣ - ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حس المآب ﴾ (آل عمران ١٤) .

٤ - ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾ (النساء ٢٠)

٥ - ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالآذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾
(المائدة ٤٥)

٦ - ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (الأنعام ٥٩) .

٧ - ﴿ وإلى مدین أخاهم شعبيا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (الأعراف ٨٥) .

٨ - ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن يؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (التوبة ٩٤) .

٩ - ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ (يوسف ٢٥) .

١٠ - ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ (الكهف ١٦) .

فأنت تلمس عند قراءة هذه الآيات أن هذا التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب وأنه سبب قوى من أسباب ارتياح النفس له واحتفائها به (١) .

الإيقاع الصوتي والإيقاع الترتيلي : (٢)

لقد رتل الله القرآن ترتيلا (الفرقان ٢٢) وأمر رسوله ﷺ أن يرتل القرآن ترتيلا (المزمل ٤) والمعروف أن الترتيل مصدر رتل يرتل وأنه وضع المجموعات في أرتال كل رتل منها طائفة مجتمعة وبين كل رتل وما يليه انقطاع مؤقت . فأما الترتيل بالنسبة لله تعالى فذلك أنه أنزل القرآن منجما حسب الوقائع وأسباب النزول فإذا أنزلت آية أو آيات عد ذلك رتلا قائما بذاته بعده فترة انقطاع الوحي ثم يعود الوحي يرتل آخر من الآيات وهكذا وهنا المعنى لا يمس موضوعنا (وهو الإيقاع) مسا مباشرا . أما الترتيل بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهو طريقة من طرق الأداء والقراءة . فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى منها المد بأنواعه والغنة والسكت وما إلى ذلك مما

١ - المرجع السابق ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

٢ - د/ تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

يعد من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالي الأصوات التي تتكون منها الألفاظ . فالمد كالسكون والسكون كالسكوت وانقطاع الكلام ، وقل ذلك عن الغنة لأنها « مد » مقيد بالنون ، وقل ذلك أيضا عن السكت وهكذا . فإذا قرأ القارئ مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما فترة انقطاع هي إما مد أو غنة أو سكت ألخ .. هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن في نضه إيقاعا آخر طارئا عليه من خلال الأداء والقراءة فإذا اجتمع الإيقاع الصوتي وذلك الإيقاع الترتيلي لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال وسبحان الله تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين : ﴿ وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون ﴾ (الأعراف ٢٠٤) .

الجرس الصوتي للحروف والمقاطع :

ومن الدراسات اللغوية التي اهتمت بالفواصل القرآنية في العصر الحديث دراسة بعنوان « لغة القرآن الكريم في جزء عم » لصاحبها الدكتور محمود نحلة لفت فيها الأنظار إلى ظاهرة الصوت المتكرر وعلاقته بالمعنى . فتكلم عن تكرار الصوت المفرد ثم عن تكرار الأصوات السابقة وما تحدثه من جرس ينهض بالمعنى ثم عن تكرار القالب الصوتي الذي تلذ به الآذان وتتأثر به القلوب فيقول :

أولا : الصوت المتكرر :

« تتخذ اللغة القرآنية أحيانا من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير الموقف وتجسيمه ، والإيحاء بما يدل عليه معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية ، وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد . وإنك لتجد القرآن الكريم يستخدم هذه

الوسيلة البلاغية باقتدار رائع ، وإعجاز معجز ، فالصوت المفرد يختار بعناية ،
وتصاحبه أصوات أخرى قد تكون متقاربة المخارج إن احتاج الموقف ذلك ،
وقد تكون متباعدة المخارج إن كان التباعد أدل على المعنى ، وأكثر
تصويرا له .

أنصت معى إلى الجرس الصوتى لحرف السين الذى يتكرر فى هذه
السورة الكريمة :

﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر
الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ ،
وأرهم سمعك بصفة خاصة إلى قوله تعالى ﴿ من شر الوسواس
الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ فحرف السين الذى تكرر فى
هذه السورة صوت صامت مهموس لثوى احتكاكى ، لا يستطيع الإنسان
أن ينطق به وهو مفتوح الفم ، بل إنه ليحدث فى نطق كثيرين له أن
تلتقى الأسنان السفلى بالأسنان العليا (١) . وقد اختير هذا الصوت بصفة
خاصة ، لإبراز هذه الوسوسة التى يخافت بها أهل الجرائم والمكائد ، وما
يلقيه الشيطان فى روح الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصى ، وهو
أدل بجرسه الصوتى الاحتكاكى الهامس على تصوير حالة الهمس
الخفى ، وقد أعانته على ذلك بعض الأصوات الأخرى التى تقاربت معه
مخرجاً منها حرف الصاد المطبق الذى يشترك فى كل خصائصه الصوتية
مع صوت السين ، ويزيد عليه الإطباق (٢) ، وهو يعطى جرساً أعلى وسط
هذه السينات المتتالية . ويشترك معه أيضاً صوت الفاء ، وهو صوت

١ - د. محمود السمران : علم اللغة ص ١٩٢ .

٢ - السابق ص ١٩٢ .

صامت مهموس شفوى سنى احتكاكى^(١)، فهذه الأصوات الثلاثة تشترك فى صفتى الهمس والاحتكاك ، وتتقارب فى وضع اللسان عند اللثة أو الأسنان، وفى وضع الشفتين حال النطق بها، ومن الأصوات التى شاركت فى إبراز هذه « الوسوسة » صوت الواو - وهو صوت شبه صائت مجهور شفوى - حنكى قصى^(٢) - الذى يتردد بين السينات المتوالية بضم الشفتين ضمات متتابعة تكون ذات أثر كبير فى تصوير موقف التحريض الهامس على ارتكاب الآثام .

واستمع مرة أخرى إلى هذا التصوير الرائع لهول يوم القيامة الذى يختل فيه نظام الكون فتهتز الأرض وتنشق السماء، وترتعد القلوب ، ولاحظ تكرار صوتى الراء والفاء على وجه الخصوص . قال تعالى : «يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة » لعلك أحسست بهذه « الراجفة » التى تشيع فى نفسك ، وأنت تستمع إلى تكرار صوت الراء الذى تتابع فى نطقه طرقات اللسان على اللثة تتابعا سريعا يصور أبدع تصوير هذه الرعدة التى تتاب الأرض والسماء ، يساعده فى ذلك صوت الفاء، وصوت الجيم وهو صوت صامت مجهور لشوى حنكى انفجارى احتكاكى مركب^(٣) ويسبقه صوت صائت طويل يبرز تكرار حرف الراء ويعطيه استمرار أكثر، وكثافة موسيقية أغزر، ثم ينقطع النفس، وينغلق مجرى الهواء حين النطق بالجيم ، ثم يفتح مرة أخرى ليسمح بنطق صوت الفاء الذى يلتقط الصدى من الراء ليصور بجرسه

١ - د. محمود السمران : علم اللثة ص ١٩٠ .

٢ - السابق نفسه ص ١٩٨ .

٣ - السابق نفسه ص ١٩٤ .

الاحتكاكى المهموس حالة الاهتزاز.

وهذا هو القرآن الكريم فى موضع آخر من جزء عم يلجأ إلى تصوير « الحشر » فى يوم القيامة بترديد صوتى الحاء والشين تصاحبهما صوائت قصيرة متتابعة . يقول عز من قائل « وإذا الوحوش حشرت » كرر الاستماع إلى هذه العبارة القرآنية ، ولاحظ تكرار صوتى الحاء والشين ، وما يحدث فى الحلق من « حشرجة » أو « حشر » أو « تراحم » فالحاء بجرسها الصوتى الذى يحدث احتكاكا فى الفراغ الحلقى لأعلى الحنجرة ، وضيق معه المجرى الهوائى ويرتفع الحنك اللين (١) ، والشين بما فيها من نفث كما يقول ابن جنى ، وضيق بين مقدم اللسان ومؤخر اللثة ، وتقارب للأسنان العليا والسفلى ، واحتكاك ناتج من محاولة خروج العمود الهوائى الضيق من بين الأسنان (٢) ، ثم هذه الضمات المتوالية على الحاء الأولى والثانية ، والواو الأولى والشين الأولى ، ثم هذا الصائت الطويل فى (الوحوش) ، والانتقال من شبه صائت إلى صائت طويل يفرق بينهما حرف الحاء ، كل أولئك أسهم فى تصوير هذا الزحام الذى تتدافع فيه الوحوش .

ومثل ذلك أو قريب منه يمكن أن يلحظ فى قوله تعالى :

- « فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » .
- « ثم السيل يسره »
- « ثم إذا شاء أنشره » .
- « إن بطش ربك لشديد » .

١ - د. محمود السمران : علم اللغة ص ١٩٥ .

٢ - السابق نفسه ص ١٩٢ .

« فقدمم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها » -

والأمثلة بعد على تكرار الصوت وأثره فى تصوير المعنى كثيرة ولكننا نجتزئ بما ذكرنا فهو يكفى فى البرهنة على هذه الوسيلة البلاغية التى إن أحسن استخدامها أنت بخير كثير .

ثانيا - تكرار أصوات سابقة :

لانتقصر البلاغة القرآنية على تكرار الصوت المفرد للاستعانة بجرسه فى تصوير موقف ما تصويروا فيها ، ولكنها تتعدى ذلك إلى تكرار أصوات متتابعة ، قد ينتظم تتابعها ، وقد يختلف اختلافا يسيرا ، وهى فى النهاية تأتى بما لها من صفات صوتية خاصة للتعبير عن معنى معين ، وإبراز جوانبه المختلفة ، وتصويره بجرس ألفاظه تصويروا موحيا مؤثرا . (١)

استمع إلى تكرار الأصوات فيما يأتى من تعبير قرآنى بليغ : يقول جل شأنه :

« كلا إذا دكت الأرض دكا دكا » .

أترك لا ترى فى تكرار هذا (الدك) أكثر من مجرد التوكيد ؟ ، أم ترى فى توالى الدك وتكراره تصويروا حسيا مجسما للدك أجزاء الأرض جزءا جزءا ، وتكرار ذلك مرة بعد مرة حتى تفنى ، ثم اختيار الدك دون غيره من الأفعال يشعرك بأصواته الانفجارية التى ينحبس عند النطق بها الهواء انحباسا تاما ، ثم لا يكاد ينساب حتى ينحبس فى صوت انفجارى آخر . ألا يشعرك هذا بالإحاطة بالأرض والإطباق عليها حتى لا يفلت

١ - د. محمود السمران : علم اللغة ص ١٦٨ .

منها جزء من الأجزاء حال هذا الدك المتوالى وهذا الانتقال من صوت الدال ذلك الصوت المجهور الصامت الذى ينحس معه الهواء فترة من الزمن عند أصول الشاىاء العلىاء ، ثم ىترك فجأة لىعود إلى الانحباس مرة أخرى عند أقصى اللسان وأقصى الحنك اللین (١) للنطق بالكاف ألا یشعرك هذا بتكرار الضغط على الأرض حتى لا یقى منها شىء .

وقل مثل هذا أو قریبا منه فى قوله تعالى :

- > إنهم یکیدون کیدا . واکید کیدا . فمهل الکافرین أمهلهم رویدا < .

- > واللیل وما وسق . والقمر إذا اتسق < .

- > فیومئذ لا یجذب عذابه أحد . ولا یوثق وثاقه أحد < .

على أن تکرار الأصوات فى هذه الأمثلة وفى کثیر غیرها کان مع اتفاق المعنى ، ولكن القرآن قد یلجأ إلى تکرار أغلب الأصوات فى کلمتین متتالیتین لیحدث بینهما نوعا من الجنس الصوتی مع تغییر فى فونیم کل كلمة منها لیتغیر تبعا لذلك المعنى ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : > ويل لكل همزة لمزة < فالمعنى هنا قد اختلف لوجود فونیم الهاء فى اللفظة الأولى ، واللام فى اللفظة الثانية وهما متباعدتان فى المخرج ، وهو ما أطلق علیه البلاغیون « الجنس اللاحق » . ومن الجنس الصوتی أيضا ما یسمونه الجنس الاستهلالی ، وهو یتحقق حین تبدأ کلمتان أو أكثر بصوت واحد یتكرر وفى کل من الکلمتین المتتالیتین أو

١ - د. محمود السمران : علم اللغة ص ١٦٨ .

الكلمات المتتالية فيحدث نوعا من النغم الموسيقى العذب بالتقاط صدى الصوت الأول وترديده، وقد ورد ذلك فى جزء عم فى كثير من المواضع نذكر منها قوله تعالى :

- ﴿ فى صحف (مكرمة) ﴾ (مرفوعة) ﴿ مطهرة ﴾ .
- ﴿ كراما كاتبين ﴾ .
- ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ - ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾
- ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ - ﴿ يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾ .

ثالثا : تكرار القالب الصوتى : (١)

من السمات الواضحة للغة القرآنية فى جزء عم تكرار القالب الصوتى للتعبير الذى توضع فيه الألفاظ فى نظام دقيق فتجد له الأذن لذة ، وفى تكراره متعة تجعله قريبا إلى النفس ، سريع العلوق بالقلب ، سهلا فى حفظه وترداده . وهذا القالب الصوتى مقيس بدقة متناهية فى كثير من المواضع ، وهى دقة معجزة وباهرة . انظر إلى تكرار القالب الصوتى الذى تتطابق حركاته وسكناته وطوله فى هذه العبارات القرآنية البليغة :

- ﴿ والنازعات غرقا ﴾ .. ﴿ والناشاطات نشطا ﴾ ﴿ والسابحات

سبحا ﴾

﴿ فالسابقات سبقا ﴾ .

- ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ . ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾
- ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ .

١ - د محمود السران . علم اللغة ص ١٦٩ .

- ﴿ إِن الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ و ﴿ إِن الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .
 - ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

- ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .
 ويمكننا أن نحمل عليه - إذا تجاوزنا عن الفارق البسيط بين طول الصائت وطول الصامت - قوله تعالى :

- ﴿ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ثم ﴿ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ .
 - و ﴿ السَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ﴾ ﴿ وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ ﴾ .
 وقد أدرك بعض الشعراء ذوى الحس البياني الرهيف مدى ما لهذا التكرار من جمال ففسجوا على منواله ، واحتذوا مثاله حذوك الشعرة بالشعرة كما يقولون . يقول البحري :

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا وأقدم لما لم يجد عنك مَهْرَبًا (١)
 والاستدلال بهذا البيت من الشعر لا يسقط بحجة الوزن الشعرى ، فقد يتفق الوزن الشعرى ويختلف (الكم) النغمى ، وقد استشهدنا به لتساوى وحداته الصوتية تساويًا يكاد يكون تاما ، ونقول (يكاد) لأن المحدثين من اللغويين يرون فرقا فى الطول بين (فيك) و (عنك) ، وإن رأى العروضيون العرب غير ذلك . ونظيره ما ذكرناه من قوله تعالى :

﴿ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ثم ﴿ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ .

١ - يحيى بن حمزة العلوى : الطراز ، الجزء الثالث (مطبعة المقتطف ١٩١٤) ص ٤٠ .

وقد تلجأ البلاغة القرآنية إلى تكرار القالب الصوتي الطويل مع الحرص الشديد على تطابق نظام ترتيب الكلمات في الجمل ، واختلاف يسير في الطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فأما من أعطى ، واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ﴾ .

﴿ وأما من بخل ، واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ .

هذا بالإضافة إلى المطابقة الباهرة بين المعنيين .

وقد تلجأ إلى إعادة القالب الصوتي بعد فاصل كبير ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين .
كتاب مرقوم ﴾

﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي علين . وما أدراك ما علين كتاب مرقوم ﴾

جرس المقاطع الصوتية : (١)

وتناول الدكتور محمود نحلة الكلام على المقاطع الصوتية وأنها في اللغة العربية إما مقاطع قصيرة وإما طويلة وإما زائدة الطول وأنها منها المقفلة ومنها المفتوحة ولكل منها سماته الصوتية المتميزة قال :

« فإذا حاولنا الآن أن ننظر في استخدام القرآن الكريم - في جزء عم - لهذه المقاطع الصوتية استخداما فنيا ووجهنا بهذه القدرة الفنية المعجزة في توزيع المقاطع وترتيبها على نسق تنقطع دون البلغاء ، ونحار

١ - د / محمود نحلة ، لغة القرآن الكريم في جزء عم ص ٣٥٨ .

فيه الأفئدة والقلوب .

أنصت معى إلى استخدام القرآ الكريم للمقاطع المفتوحة على وجه الخصوص فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ ، ولا تحرك لسانك لتعجل بها ، ولكن أعطاها حقها من القراءة المستأنية المتأملة ، ثم حاول معى أن تتمثل ما تعبر عنه هذه المقاطع ، وربما أعاننا على تفهم ذلك أن ننقل ما قاله الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسيرها قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ السَّادِرُ فِي غُلُوِّهِ ، الصَّادِرُ فِي عَمَلِهِ عَنْ أَهْوَائِهِ الْغَافِلُ عَنْ مَصِيرِهِ ، الْجَائِرُ عَنْ جَادَةِ الْحَقِّ فِي مَسِيرِهِ : لَا تَنْظُرَنَّ أَنَّكَ خَالِدٌ مُّقِيمٌ فِيمَا أَنْتَ لَهُ جَاهِدْ ، وَأَنَّكَ إِنْ أَذَيْتَ الْخَلْقَ وَازْدَرَيْتَ الْحَقَّ ، وَاعْتَرَسْتَ بِالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَسَلَّمْتَ عَنَّاكَ لِلشَّهْوَةِ ، ضَمَنْتَ لِنَفْسِكَ التَّمَتُّعَ بِمَا تَكْسِبُ ، وَالْبَقَاءَ فِيمَا فِيهِ تَتَعَبُ وَتَنْتَصِبُ كُلَّ إِنَّاكَ مُجَدِّ فِي السَّيْرِ إِلَىٰ رَبِّكَ ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَشْعُرُ بِجَدِّكَ أَوْ إِنْ شَعَرْتَ ، لَهْوَتَ عَنْهُ ، وَكُلَّ خُطْوَةٍ فِي عَمَلِكَ فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ خُطْوَةٌ إِلَىٰ أَجْلِكَ ﴾ (١) .

هذا التقريرع للإنسان الغافل ، وإشعاره بأن لا سبيل إلى الفكاك من المصير المحتوم قد عبرت عنه أصدق تعبير هذه المقاطع المفتوحة المكونة من صوائت قصيرة ، وصوائت طويلة وختمت بمقطع زائد الطول ، والتي غلبت عل يهذه الآية الكريمة كما يتضح من التحليل الآتى :

يا / أَيْ / يَ - هـ - ل / إِنْ / سَا / نَ - ا / إِنْ / نَ / ا
- كَ - ا / كَا / دَ - ا / حَ - نَ / ا / لِي / رَ - بِّ / ا / بَ - ا / كَ -

١ - محمد عبده : تفسير جزء عم ص ٤٠ .

ا ك - ك - د / ح - ن / ف - ا - م - لا / قيه / .

فالمقاطع المقفلة فى هذه الآية الكريمة لاتزيد على ثمانية مقاطع من مجموع المقاطع وعدتها أربعة وعشرون مقطعا أى أنها ثلث عدد المقاطع، وباقى المقاطع مفتوحة بين القصيرة والطويلة والزائدة الطول . فلنعد قراءة الآية الكريمة ولنلاحظ بصفة خاصة المقاطع الطويلة (يا - سا - كا - لى - لا - قيه) ، ولتحاول أن نربط بينها وبين الزمن الذى يستغرقه نطق هذه المقاطع، والزمن الذى يستغرقه الإنسان فى الكدح والجهد فى التحصيل، أى أنه مهما طال الزمن ، ومهما بذل من مجهود : فلا بد من لقاء ، وانظر إلى هذين المقطعين المقفلين اللذين جاءا وسط عدد من المقاطع المفتوحة (ك - د / ح - ن) ليردد الصدى الصوتى للفظ (كادح) وتأكيده ، وتبين شدة المجهود الذى يبذل فيه .

ولننظر الآن فى استخدام التعبير القرآنى البليغ لهذا النوع من المقاطع المفتوحة للتعبير عن لون آخر من المعانى يقول عز من قائل :

﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾ .

أرأيت إلى هذا التعبير عن موقف الندم الذى يصيب الإنسان ولات حين مندم، كيف عبرت عنه اللغة القرآنية بهذه المقاطع المفتوحة :

ي - و - ا - م - ا - ذ - ن : ي - ا - ت - ا - ذ - ك - ا -
ر - ل - ا - ن - سا - ن - و - ا - ن - نى - ا - ل - ه - ذ - ا -
ك - رى - ا - ي - ا - قوال - ا - يا - ل - ي - ا - ت - نى - ا - ق - د - ا -
د - م - ا - ت - ا - ل - ح - ا - يا - نى - ا - .

فالمقاطع المقفلة أيضا لا تزيد على ثلث المقاطع فى هذه الآية الكريمة ، وسائرهما مقاطع مفتوحة . وانظر كيف توالى المقاطع الطويلة (سا / ارى / قو / يا / نى / يا / تى /) وكأنها نوح النادم الآسى على ما فرط فى جنب الله . (يا / نى / يا / تى /) وكيف يتراوح المد بالألف مع المد بالياء ليصور حالة الجزع والندم التى يرتفع فيها الصوت المتحسر ، ثم لا يلبث أن يتراخى وينحدر ، ليعود فيرتفع ممتدا إلى أعلى ويتراخى منخفضا إلى أسفل . وبين هذه المقاطع الطويلة المفتوحة يرد مقطعان مقفلان فى قوله (قدمت) (ق - د / د - م / ت -) يعبران عن سبب الندم الذى يتذكره الإنسان فيضغط عليه ليقرع نفسه به ، ولتحقيق ذلك اختار القرآن الكريم أن يكرر صوت الدال المجهور الذى ينحبس الهواء احباسا تاما حال النطق به بأن يلتقى طرف اللسان بأصول الشاى العليا مدة من الزمن ، ثم يفصل العضوان انفصالا فجائيا ليحدث هذا الصوت (١) فيكون خير تعبير عن هذا الضغط المتتابع على ما كان ينبغى أن (يقدمه) لحياته .

وربما استعملت هذه المقاطع المفتوحة فى لون آخر من التعبير الهادى المريح الذى تطرب له النفس ، وتترنم به كما فى قوله تعالى :
« وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة . »

ألا ترى معنى أن هذه المقاطع المفتوحة التى تنتهى بصوائت طويلة

١ - د . محمود السمران : علم اللغة من ١٦٨ .

تعبّر عن هذا النعيم الهادئ الذى تتعدد فيه وسائل المتعة والراحة، التى
 نجحت هذه « المذات » فى تصويرها إلى حد كبير : « جو - نا - ها - را
 - عا - لا - ها - لا - ها - جا - فو - وا - ضو - ما - فو - را - ثو » .
 وها هو القرآن الكريم يعبر بالمقاطع (المقفلة) أصدق تعبير عن
 معنى العقاب الصارم الذى ينزل بالظالمين الكافرين الجاحدين نعمة الله
 وفضله فى قوله تعالى :

﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ .

(ص - ب) - (ل - ي) - (ه - م) - (ر - ب) - (س
 - و) .

ويكاد هذا التقطيع يبرز لنا كيف ينصب عليهم العذاب انصباباً فى
 شدة وعنف وتوال، وتكرار . (لاحظ اتفاق المقاطع السابقة اتفاقاً تاماً فى
 نوع المقطع وتكراره) .

وانظر أيضاً كيف عبر القرآن الكريم بهذه المقاطع المقفلة عن الحزم
 القاطع والجد الفاصل الذى لا مجال فيه لتهاون ولا تجوز فى قوله تعالى :

﴿ إنه لقول فصل . وما هو بالهزل ﴾ .

(ا - ن - ق - و - ل - ن - ف - ص - ل - ن - ب - ل - ه
 - ز) .

وكلها من المقاطع المقفلة الطويلة ، وهى حادة حاسمة فى موقف
 الجد والفصل وهى خير تعبير عنه . وقد لجأ التعبير القرآنى إلى استخدام
 مقطع مفتوح ينتهى بصائت طويل وسط هذه المقاطع المقفلة هو (ما)
 يعبر عن موقف النفى العام الشامل للهزل .

على أننا لو شئنا أن نتبع الاستخدام الفني للمقاطع فى القرآن لأتينا
بأمثلة كثيرة تدل على ما قررناه من هذه القدرة المعجزة على استخدام
المقاطع استخداماً فنياً ، ولكننا نجتزئ بهذا القليل عن الكثير ، ولعله
يجزىء ، (١) .

ولا يخفى علينا ذلك الدور الذى تؤديه الفاصلة التى هى خاتمة
المقطع الصوتى فى تحقيق النسق الموسيقى سواء فى المقطع القصير أو
المقطع الطويل أو المقطع الزائد الطول .

الخروج على رتبة الإيقاع :

وفى شأن الفواصل يقول الدكتور / محمود نحلة :

« وقد أُنعمت النظر فى استخدام القرآن الكريم لنظام الفواصل ،
وانتهيت بعد طول الروية والأناة إلى أن أهم سمات الاستخدام القرآنى
للفواصل ما يأتى :

أولاً : الخروج على رتبة الإيقاع (كسر الإيقاع) :

قررنا قبلاً أن التعبير القرآنى البليغ قد يلجأ إلى تكرار القالب الصوتى
ترديداً وتنغيماً ، ولكن هذا التكرار لا ينتهى به إلى رتبة الإيقاع ، بل تقع
عليه فى تضاعيف الكلام وأطواره كما تقع على الدر النضيد ، ثم يكسر
التعبير القرآنى رتبة الإيقاع الذى قد ينتج عن تكرار القالب الصوتى
تكراراً زائداً مما قد يعث الملاله والسآمة فى نفس السامع أو القارئ حين
تتعود الأذن نمطاً مألوفاً من الإيقاع الموسيقى فتقل متعة النفس به .

١ - د / محمود نحلة ، لغة القرآن الكريم فى جزء عم .

والقرآن الكريم حين يلجأ إلى كسر هذه الرتابة يشرى التعبير بأنغام موسيقية متنوعة، تتحدر فيها موجات النغم، وتتنوع أصداؤه، وتتصاعد درجاته، وقد لاحظت أنه يلجأ في ذلك إلى وسيلتين :

إحدهما : المراوحة بين القرائن في الكم الموسيقى ، فنجده يأتي بالفواصل المتوسطة الطول ، ويتبعها بالفواصل القصيرة ، ثم بالطويلة ، ثم يعود إلى القصيرة أو المتوسطة ، وهكذا ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . ونبتنا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنت ألفافا ، إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفطحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا . إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لا يثن فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا ... ﴾ .

فالأذن الموسيقية كما يقولون لا تجد أيسر عناء في إدراك هذا النغم المتنوع الذي تختلف موجاته، وتتعدد إيقاعاته .

الثانية : التصاعد النغمي ، ونعني به البدء بالفواصل القصيرة ، وإتباعها بفواصل أطول فأطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكاسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسبا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم

يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ومنهُ أيضاً قوله جل وعز :

﴿ والعصر - إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

وقد يتوازن الإيقاع ويتقارب ، ولكن أنغامه تختلف ، ولا يمكن أن نحس فيه بشيء من الرتابة ، وذلك متحقق في سورة الشرح التي تتقارب فيها القرائن ، ويتوازن الإيقاع الموسيقى وبخاصة في الجزء الأخير منها ، ولكنك لا تجد فيها أثرا لرتابة الإيقاع : (١)

﴿ ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي انقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ .

ثانيا : التوازي :

التوازي بمفهومه البلاغي - وهو اتفاق أواخر القرائن في الوزن والروى - سمة واضحة في الفواصل القرآنية (في جزء عم) فهو متحقق فيما يزيد على أربعين موضعا ، وهو بما يحمل من توافق صوتي بإعادة القالب الصوتي الأخير ، وتكرار حرف الروى يؤدي إلى إثراء التعبير بهذا الرنين الموسيقي المحبب الذي تنشط له النفس ، ولا يقف البيان القرآني المعجز عند هذا الحد ، بل يزيد عليه في بعض المواضع لزوم

١ - المرجع السابق نفس ص ٣٦٧ .

مالا يلزم. وبعض المحسنات الصوتية الأخرى مثل الفواصل الداخلية ونسق التعبير. (١)

فمما وردت فيه الفواصل القرآنية متفقة الأواخر في الوزن والروى قوله جل وعز :

- ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾ .
- ﴿ حدائق وأعنايا . وكواعب أترابا ﴾
- ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة ﴾
- ﴿ بأيدي سفرة . كرام بررة ﴾ .
- ﴿ فأنبتنا فيها حبا . وعنا وقضيا ﴾
- ﴿ ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ﴾ .
- ﴿ والسماء ذات الرفع . والأرض ذات الصدع ﴾ .
- ﴿ إنه لقول فصل . وما هو بالهزل ﴾ .
- ﴿ فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ﴾ .
- ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾
- ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾
- ﴿ والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات ضبحا ﴾ .
- ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور ﴾

ومما وردت فيه الفواصل القرآنية متفقة الأواخر في الوزن والروى، وزادت عليه لزوم مالا يلزم محدثة نوعا من الجتناس الصوتي البديع :

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٦٨ .

- « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس » .
- « فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر » .
- « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق » .
- « قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق » .
- ومما لجأ فيه البيان القرآنى إلى الفواصل الداخلية قوله تعالى :
- « لم يكن الدين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ،
منفكين ، حتى تأتيهم البينة » .
- « ويل لكل همزة ، لمزة » .
- وقد يأتى القرآن الكريم بالقرينة على نسق قرينة سابقة عليها فى ترتيب الكلمات مع اتفاق أواخر القرائن فى الوزن والروى . ومن ذلك قوله جل وعز :
- « وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما » .
- « فائرن به نقعا . فوسطن به جمعا » .

ثالثا : التوازن : (١)

توازن الفواصل فى مصطلح البلاغيين مقصود به اتفاق أعجاز القرائن فى الوزن دون الروى ، وإذا كان اتفاق الوزن والروى فى بعض الفواصل يعطى هذا الشراء الموسيقى الذى أشرنا إليه . فإن الاحتفاظ بالوزن ، والتخلى عن الروى فى بعض الأحيان يكون له من الحسن مثل سابقه ، إذا حدثت المراحة بينهما ، باعتياد الأذن على نهاية صوتية واحدة لكل قرينة قد يفقدها عنصر المفاجأة التى توقظ النفس وتنبه

١ - المرجع السابق نفسه ص ٢٦٩ .

الذهن، ولا نريد بذلك أن نشير مناقشة حول الروى فى الشعر وأهميته أو قيمته الفنية، ولكننا نقرر هنا أن النمط الأعلى للبيان المتمثل فى القرآن الكريم لم يلتزم رويًا واحدًا لكل فواصله، وإنما يلتزم به حين يكون التزامه أروع وأعجب، ويتخلى عنه حين يكون التخلي عنه ضرورة فنية لازمة لكسر الرتابة وتحقيق التنوع النغمى .

وانك لتجد البيان القرآنى يخرج من الفواصل المتوازية إلى المتوازنة أو المطرفة، ثم يعود إلى المتوازية ، ويخلط بين أنغامها المتنوعة، وأصواتها المختلفة والمؤتلفة ليقدم لنا فى النهاية لحنا موسيقيا عذبا ، تتضافر نغماته فى إبراد هذا اللون من الجمال الفنى . (١)

ونريد الآن أن نعرض بعض الفواصل المتوازية التى يتحقق فيها الوزن دون الروى ، مع ملاحظة أن هذا اللون أقل شيوعا من اللون الأول ، وقد نلاحظ أن التعبير القرآنى يصحب ذلك فى بعض المواضع بتكرار أصوات سابقة أو استخدام أصوات متقاربة المخارج . ومن ذلك قوله تعالى :

- ﴿ أَنَا صَبِينَا الْمَاءِ صَبَا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَا ﴾ .
- ﴿ كَلَّا إِذَا دَكَتِ الْأَرْضُ دَكَا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا ﴾ .
- ﴿ فِى صَحْفٍ مَكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مَطْهَرَةٍ ﴾ .
- ﴿ وَنَمَارِقٍ مَصْفُوفَةٍ . وَزَوَارِبٍ مَبْثُوثَةٍ ﴾ .
- ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .
- ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا . وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ

١ - المرجع السابق نفسه ص ٢٧٠ .

- أبوابا .
- ـ « وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت » .
- ـ « وما أدراك ما الطارق . النجم الشاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ » .
- ـ « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » .
- ـ « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين » .

رابعاً : التطريف :

التطريف فى مصطلح البلاغيين ما اتفقت فيه الأعجاز فى الروى دون الوزن ، والتعبير القرآنى حين يستخدم هذه السمة فى الفواصل لا يكتفى بمجرد التشابه فى حروف الروى . ولكنك تقع فيه على وسيلة مصاحبة للروى هى ما يمكن أن نسميها « التشابه المقطعى » ، فالفواصل التى لا تتفق فى الوزن تتفق فى أكثر المقاطع ، ويقع الخلاف بينها فى مقطع واحد غالباً لتحقيق التنوع النغمى الذى أشرنا إليه من قبل . فمن ذلك قوله تعالى :

« إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً » .

فالقريئتان تنتهيان بلفظين مشتركين فى الروى دون الوزن كما يلاحظ البلاغيون ، ولكننا نزيد عليهم أن التعبير القرآنى يحقق فى هذا النوع لونا من التناسب أو التشابه المقطعى ، فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتكون من مقطع قصير (صامت + صائت قصير) هو (حـ) ومقطع طويل (صامت + طائت طويل) هو (سا) ، ثم مقطع طويل آخر (صامت + صائت طويل هو (با) . واللفظة الأخيرة من القرينة

الثانية تشترك مع اللفظة الأولى في المقطعين الأخيرين فكلا المقطعين الأخيرين في الثانية طويل يتكون من (صامت + صائت طويل) وهما (ذا) (با) وتختلف اللفظتان (حسابا) و (كذابا) في المقطع الأول فقط فهو في الثانية (طويل) ويتكون من صامت + صائت قصير + صامت (ك - ذ) وفي الأولى قصير (ح -) أى أن الزيادة طفيفة . وهى تقع فى زيادة صوت صامت فى اللفظة الثانية بعد الصائت القصير . ولعل هذا يفسر عدول القرآن الكريم عن استخدام المصدر الشائع للفظه كذّب وهو (تكذيب) واستخدام (كذابا) بدلا منه . (١)

وقد يحدث العكس فتكون الزيادة فى اللفظة الأخيرة من القرينة الأولى كما فى قوله تعالى :

﴿ إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا ﴾ .

فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتكون من ثلاثة مقاطع طويلة ، والثانية تتكون من مقطع قصير ومقطعين طويلين .

ومن الإعجاز فى التعبير القرآنى أن تختلف الكلمة الأخيرة من كلتا القرينتين فى الوزن ، ولكنهما تتفقان اتفاقا تاما فى المقاطع ، ومن ذلك قوله جل وعز :

- ﴿ الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده ﴾ .

فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتألف من : مقطع طويل (ع -

١ - المرجع السابق نفسه ص ٢٧١ .

(د) ، ومقطع قصير (د -) ثم مقطع طويل (د - هـ) ، واللفظة الأخيرة من القرينة الثانية تتألف من مقطع طويل هو (أ - خ) ومقطع قصير هو (ل -) ثم مقطع طويل (د - هـ) . والمقطعان الطويلان فى كلتا القرينتين مقفلان . وليس وراء ذلك تطابق فى المقاطع .

ومثل هذه المطابقة التامة تجدها فى قوله تعالى :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فالكلمتان الأخيرتان فى القرينتين الأولى والثانية تتألف كل منهما من أربعة مقاطع :

طويل مقفل + طويل مفتوح + قصير + طويل مفتوح .

(ز - ل / ز ا / ل - ا / ها) (أ - ث / قا / ل - ا / ها) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد . وهو الغفور الودود ﴾ .

(ي - ع / عيد /) (و - ا / دود) فى حالة الوقف ولا بد منه فى السجع . (١)

وقليلا ما تزيد إحدى الفاصلتين فى القرينتين مقطعا كاملا عن الأخرى وذلك متحقق فى نحو قوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ﴾ .

(م - س / ف - ا / ر - هـ) (م - س / ت - ب / ش - ا / ر - هـ) .

فقد زادت الكلمة الثانية مقطعا طويلا كاملا هو (ت - ب)
ولا يخفى أن لهذه الزيادة مغزاها وهي تصوير الاستبشار (الزائد) الذى
يصيب وجوه المؤمنين .

خامسا : الترميل : (١)

ونعنى به عدم التقيد بوزن ولا روى فى الفواصل ، وهو أقل
السمات ظهورا فى جزء عم ، ولكن البيان القرآنى الأعظم لا يتركه
عاطلا دون تحقيق قدر كبير من الانضباط الموسيقى يتمثل فى اتقان
المقاطع وتطابقها تطابقا تاما فى كثير من الأحيان أو تناسبها وتشابهها فى
أحيان أخرى .

فمن الترميل فى الفواصل الذى اتفقت مقاطعه وتطابقت تطابقا
تاما قوله تعالى « وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا
النهار معاشا . وبينا فوقكم سعا شدادا » .

فكل لفظة أخيرة فى القرائن السابقة تتطابق مقاطعها تطابقا كاملا :

سباتا : (س - / با / تا /) (قصير + طويل + طويل)

لباسا : (ل - / با / سا) (قصير + طويل + طويل)

معاشا : (م - / عا / شا) (قصير + طويل + طويل)

شدادا : (ش - / دا / دا) (قصير + طويل + طويل)

وهذا انضباط باهر فى (الكم) النغمى وزمن النطق بهذه الألفاظ

. وهو يغنى فى كثير عن وحدة الوزن والروى .

ومن الفواصل التى تقاربت فيها المقاطع وتناسبت دون أن تتطابق تطابقا كاملا قوله تعالى : ﴿ لنخرج به حيا ونباتا . وجنات ألفافا . إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ .

نباتا : (ن - با / تا) (قصير + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

ألفافا : (أ - / فا / فا) (طويل مقفل + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

ميقاتا : (مي / قا / تا) (طويل مفتوح + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

فأنت ترى أن الاختلاف طفيف . وربما عمد إليه القرآن تحقيقا للتنوع الموسيقى . (١)

الفصل الرابع معارضة الفواصل

9

القول بالصَّرْفَة

فيه :

- تحدى القرآن .
- معارضة الفواصل .
- القول بالصَّرْفَة .
- القرآن المعجزة الخالدة .

تحدى القرآن

أثارت الفواصل القرآنية حفيظة مشركى العرب عندما سمعوا القرآن الذى جاء به محمد ﷺ ، حيث قد ظهر عجزهم واضحا أمام هذا الجديد الوافد عليهم من الكلام العربى البليغ بفواصله القوية الممتنعة ، الذى جاءهم به رسول رب العالمين ، واستكثروا على النبي ﷺ أن يأتى هو به من دونهم ، فقال المشركون لو أن هذا القرآن نزل على غيره من أصحاب المال والسلطان من عظمائهم ، « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١) . يعضون « الوليد بن المغيرة فى مكة ، أو «عروة بن مسعود الثقفى» فى الطائف ، ظنا منهم أن العظيم هو الذى يكون له المال والجاه ، أما محمد فهو يتيم فقير ، ولهذا رد عليهم ربنا تبارك وتعالى بقوله : « أ هم يقسمون رحمة ربك » حتى يقترحوا أن تكون النبوة لفلان الغنى أو لفلان الكبير من الناس ١٢ .

وكان القرآن يتولى عن النبي ﷺ الرد عليهم فى كل ما اتهموه به من الصفات فمرة قالوا شاعر ومرة قالوا مجنون ومرة قالوا ساحر ، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أنه ليس هناك من بينهم من هو أعظم نفسا وأسمى روحا من محمد ﷺ . ولكن الغيظ ملأ قلوبهم واستولى على نفوسهم حين جاءهم محمد بما يسفه أحلامهم ويبرى عليهم عبادتهم الأصنام من دون الله الواحد القهار .

ولذلك نجد الفواصل فى القرآن المكى متوالية متلاحقة تهز كيانهم وتزلزل كفرهم وعنادهم ، لتستأصل نوازع الشر من صدورهم وتدفعهم دفعا إلى الدين الجديد وإلى الشريعة السديدة ، وتهديهم سبيل الرشاد بعد

أما الفواصل في القرآن المدني فجاءت غالبا فضفاضة متباعدة . لأن الأمر أصبح أمر تشريع وتفصيل ، والفواصل في القرآن مدنية ومكية أحدثت في نفوسهم دويا رهيبا مهيبا ، لأنهم لم يستطيعوا حيالها مقاومة أو تكديبا ، فهي من واقع كلامهم ومن نهج أساليبهم ، حتى خيل لبعضهم أنهم باستطاعتهم محاكاتها والإتيان بمثلها فجاء عنهم حين سمعوا القرآن من النبي ﷺ أنهم « قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون » (الأنفال ٣١ - ٣٣) .

إنهم قالوا ذلك مكابرة منهم وعنادا ولكنهم في حقيقة شعورهم أنهم لا يستطيعون . وإلا فما الذي كان يمنعهم من المقالة ، وهم لو استطاعوا لما تأخروا ، وما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم القرآن عشر سنين ، وقرعوا على المعجز ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، ثم هم يطلبون لأنفسهم وقوع العذاب بهم ، وهذا من فرط جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وهذا تهكم منهم واستهزاء ، ولكن الله سبحانه قد جرت سنته وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، قال ابن عباس : لم تعذب أمة قط ونبيها فيها (١) ، فهم يستعجلون العذاب والله لا يعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرونه ويستمطرون رحمته .

١ - تفسير الصابوني ج ١ / ٥٠٢ .

ولعل فاصلة الآية « .. وهم يستغفرون » تحبب إليهم الدعوة إلى التوبة
وطلب المغفرة لأن الله رحيم بعباده :

« قال الجاحظ : بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً
وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغةً ، وأشد ما كان عُدَّةً ، فدعا أقصاها وأدناها
إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العنبر وأزال
الشبهة وصار الذي يمنهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل
والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف . فنصب لهم الحرب ونصبوا ،
وقتل من عليهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو في ذلك
يحجج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان
كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بها ،
وتقريباً لمجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه
ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من
أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوها
مفتريات . فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه
لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي
عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل
على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك
عليهم ؛ وكثرة شعرائهم ؛ وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه
وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله : وأفسد
لأمره وأبلغ في تكذيبه ؛ وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ،
والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذي
لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات ؛

ولهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار
الموجز ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المشور ، ثم تحدى به أقصاهم
بعد أن أظهر عجز أدناهم . فمحال - أكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء
كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البين مع التصريح
بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم
مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على
الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه
محال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة ،
فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه ، وهم يذلون
أكثر منه (١) .

قال الصابوني :

« التحدى بعشر سور جاء بعد التحدى بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا
عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان
بسورة من مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المعاني والأحكام
التشريعية وأمثالها ، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

أَلَا إِنَّمَا الْقُرْآنُ تُسْعَةٌ أَحْرَفٍ سَأُنِيكَهَا فِي بَيْتٍ شَعْرٍ بِلَا مَلَلٍ
حلال ، حرام ، محكم ، متشابه ، بشير ، نذير ، قصة ، عظة ، مثل

قال تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ
تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ

١ - الرافعي ، إعجاز القرآن ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

للكافرين ﴿ (البقرة ٢٣ - ٢٤) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : « شرع تعالى في تقرير النبوة ، بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو ، فقال مخاطباً للكافرين : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ ، يعنى محمداً ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من مثل ما جاء به ، وإن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك .

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن ، فقال في سورة القصص / ٤٩ ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ .

وقال في سورة سبحان / ٨٨ : ﴿ قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

وقال في سورة هود / ١٣ : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

وقال في سورة يونس / ٣٧ - ٣٨ : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

وكل هذه الآيات مكية ، ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة ، فقال في هذه الآية : ﴿ وإن كنتم في ريب ﴾ ، أى : شك ﴿ مما نزلنا على عبدنا ﴾ ، يعنى : محمداً ﷺ ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ . يعنى : من

مثل القرآن .. وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة
عداوتهم له وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك .

ولهذا قال تعالى : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا » ، و « لَنْ » ،
لنفي التأييد ، أى : ولن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضاً معجزة أخرى ،
وهو أنه أخيراً خبيراً جازماً قاطعاً ، مقدماً غير خائف ولا متفق - أن هذا
القرآن لا يعارض بمثله أبداً ، وكذلك وقع الأمر ، لم يعارض من لدنه
إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، ولأنى يتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله
خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ؟ (١)

« ولم يكن هذا القرآن الذى تحداهم به مؤلفاً من غير حروف لغتهم
التي رضعوا لبناتها صفاراً ، وارتاضوا أنفسهم على أديها - شعراً ونثراً -
كباراً ، وقد ذكر الله عز وجل فى مطلع سور من كتابه حروفاً مقطعةً
واللتببيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى فى
متناول المخاطبين به من العرب ، ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب
المعجز ، الذى لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله ، الكتاب
الذى يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو
بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدى جواباً .

والشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق الله جميعاً ، وهو مولى
صنع الله فى كل شيء وصنع الناس » (٢) .

وقد بين الله عز وجل فى مواضع كثيرة من كتابه ؛ أن هذا الكتاب

١ - عمدة التفسير ، وهو مختصر تفسير ابن كثير للعلامة أحمد محمد شاكر ١١٧/١ .

٢ - أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان ، فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ، نشر
دار العلوم الإسلامية بالقاهرة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ٨ .

عربى ، وأنه نزل بلسان العرب الذى كانوا به ينطقون ، وأن هذا الكتاب ليس أعجمياً ، بل هو قرآن عربى مبين .

وقال تعالى : ﴿ وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ (الشعراء ١٩٢-١٩٥).

وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ (يوسف ٢) .
وقال تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (النحل ١٠٣) .

قال الشنقيطى رحمه الله : « بين جل وعلا كذبهم وتعتهم فى قولهم : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ، بقوله : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ أى : كيف يكون تعلمه من ذلك البشر ، مع أن ذلك البشر أعجمى اللسان ، وهذا القرآن عربى مبين فصيح ، لا شائبة فيه من العجمة ؟! هذا غير معقول .

وبين شدة تعتهم أيضا بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذبوه أيضا ، وقالوا : كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذى أنزل عليه عربى ، وذلك فى قوله : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته لأعجمى وعربى ﴾ (فصلت ٤٤) ، أى : أقران أعجمى ، ورسول عربى ؟! فكيف ينكرون أن القرآن أعجمى والرسول عربى ، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمى ، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربى ؟! .

كما بين تعتهم أيضا بأنه لو نزل هذا القرآن العربى المبين ، على أعجمى فقرأه عليهم عربيا لكذبوه أيضا ، مع ذلك الخارق للعادة ؛

لشدة عنادهم وتعنتهم ، وذلك فى قوله : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين ﴾ (الشراء ١٩٨ - ١٩٩) .

وقوله تعالى : ﴿ يَلْحَدُونَ ﴾ ، أى : يميلون عن الحق ، والمعنى : لسان البشر الذى يلحدون - أى : يميلون - قولهم عن الصدق والاستقامة إليه ، أعجمى غيريين ، وهذا القرآن لسان عربى مبين ، أى : ذوبان وفصاحة ، (١) .

وقال القرطبى رحمه الله : « يقال : رجل أعجم وأعجمى إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجل عجمى وإن كان فصيحاً ، ينسب إلى أصله » (٢) .

وقال تعالى : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (فصلت ٣) .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ (طه ١١٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ (الزمر ٢٧ - ٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى

(الشورى ٧) .

د الأمين الشنقيطى ٣/٣٣٧ .

هذا بيان ربنا سبحانه أن القرآن العظيم إنما نزل بِلغة العرب ،
وبلسانهم ، فاجتمع من هذا ومن دعوته إلى التدبُّر : أن الدعوة إلى
المعرفة بِلغة العرب ما تزال قائمة .

أقول هذا لأنه ربما قال قائل : إن التدبُّر فيه هو النظر في قوانينه التي
التي قَتَّها ، ووسائل الإصلاح التي فصلَّها ، والحدود التي حدَّها ،
والشرائع التي شرعها ، وآفاق السموات والأرض التي جلاَّها ، إلى غير
ذلك من علومه وفنونه ، وهذا ممكن للعربي والعجمي من غير كبير
فارق .

نعم ، ربما قال قائل ذلك ، فأقول : إن القوم الذين نزل القرآن
بلفتهم كانوا عربا جرى القرآن في مقتضى قانون لفتهم ، ومحمداهم أن
يأتوا بمثله ، فمجزوا ، ومجز من بعديهم من بعدهم أبداً ، لأن الإعجاز
بالتحدى لا يزال قائما ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا
بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »
(الإسراء ٨٨) .

وأيضاً ، فالسور الأولى التي أنزلت بمكة في أول العهد بنزول الوحي
كانت غير منظومة على نظم تشريعية ، ولا قوانين تنظيمية ، وإنما لحظ
أولئك العرب الإعجاز في نظم هذا القرآن نفسه .

وعلى قدر المعرفة بِلغة العرب تكون المعرفة بفضل القرآن وعلو شأنه ،
قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « وإنما يعرف فضل القرآن من عرف
كلام العرب ، فعرف علم اللغة ، وعلم العربية ، وعلم البيان ، ونظر في
أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها ، ورسائلها ،
وأراجيزها ، وأسجاعها ؛ فعلم منها تلوين الخطاب ومعدوله ، وفنون

البلاغة وضروب الفصاحة ، وأجناس التجنيس ، وبدائع البديع ، ومحاسن الحكم والأمثال ، فإذا عَلمَ ذلك ونظر في هذا الكتاب العزيز ، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان ، فقد أوتى فيه العجب العجيب ، والقول الفصل اللبّاب ، والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب ، وتغلّق دونها الأبواب ، فكان خطابه للعرب ، بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ، ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ليسيل رداء عجزهم عليهم ، وثبت أنه ليس من خطابهم لديهم ، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم ، وكنت عن النطق بمثله ألسنة بلغائهم ، وبرز في رونق الجمال والجلال ، في أهمل ميزان من المناسبة والاعتدال ، ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة ، والنفوس خشية ، وتستلذه الأسماع ، وتميل إليه بالحنين الطباع ، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة ، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة ، كافرة بما جاء به أو مؤمنة (١) .

ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن العظيم ، والوقوف على ذلك ، إلا عن طريق معرفة لغة العرب ، ومعرفة ما كان عليه العرب الذين نزل القرآن في زمنهم من الفصاحة والبيان واللسن ، ومن لم تكن له بذلك دراية ، ولا له عليه إقبال ، فشأنه شأن الأعجمي الذي يعرف الإعجاز في القرآن . عجز العرب الأقدمين عن الإتيان بمثله (٢) .

قد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء : أحدها : حسن

١- بن سعيد بن رسلان : فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ،
 ٢- انظر المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ، ص ٧ .

تأليفه ، والثمام كلمه مع الإيجاز والبلاغة ، وثانيها : صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً وشرأ ، حتى حارت فيه عقولهم ، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله ، مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك ، وتقريعه لهم على العجز عنه ، وثالثها : ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة ، والشرائع الدائرة ، مما كان لا يعلم منه إلا النادر من أهل الكتاب ، ورابعها : الإخبار بما سيأتى من الكوائن التى وقع بعضها فى العصر النبوى وبعضها بعده .

ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم فى قضايا أنهم لا يفعلونها ، فمجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه ، ككتمنى اليهود الموت ، ومنها : الروعة التى تحصل لسامعه ، ومنها : أن قارته لا يمل من ترده ، وسامعه لا يمجّه ، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة ، ومنها : أنه آية باقية لاتعدم مابقيت الدنيا ، ومنها : جمعه لعلوم ومعارف لاتنقض عجائبها ، ولا تنتهى فرائدها ... اهـ . مخلصا من كلام عياض وغيره ، (١) .

معارضة الفواصل :

ذكر الرافعى فى « إعجاز القرآن » عددا من الذين عارضوا القرآن وتنبأوا وقالوا كلاما مسجوعا جريا على أسلوب القرآن فى فواصل الآيات ... قال (٢) : على أن التاريخ لا يخلو من أسماء قوم قد زعموا أنهم عارضوا القرآن ، فمنهم من ادعى النبوة وجعل ما يلقبه من ذلك قرآنا كيلا تكون صنعته بلا أداة ... على أنه لا أتباع له من غير قومه ، ولا

١ - فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٦٢٣/٨ .

٢ - الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ١٣٥ .

يشايحه من قومه طائفة يستنفرون لأمره ويعطفون عليه جنباث الناس حتى يجمعوا له أخلاطا وضروبا ، قد تبعوه وشمروا في ذلك حمية وعصبية ، وحدها من الطباع على الطباع ^(١) فهم في غنى عن نبوته وقرآنه ، وإنما رأيهم الخطار بالأنفس والأموال على ماتزعهم إليه الطبيعة ، مقارنة لمن قارب صاحبهم ، ومباعدة لمن باعد ، وعسى أن يرد ذلك مغنما ، أو ينقلهم من غيرهم ، أو يجدى عليهم بالعزة والغلبة ، أو يكون لهم سبيل منه إلى التوثب إذا صادفوا وأصابوا مضطربا ، إلى غير ذلك مما تزينه المطمعة ، ويغربه الغرور ، ويقصد إليه بالسبب الواهي وبالحدث الضئيل ، وبكل طائفة من الرأي وبقية من الوهم وتستوى فيه الشمال واليمين ، وتتقدم فيه العروس والأرجل مبادرة لا يدرى أيهما حامل وأيها محمول ...

ومنهم من تعاطى معارضة القرآن صناعة وظن أنه قادر عليها يضع لسانه منها حيث شاء ، وهؤلاء وأولئك لا يتجاوزون في كل أرض دخلها الإسلام من بلاد العرب والعجم إلى اليوم عدد ماتراه من عانة ضئيلة ^(٢) تعرض لك من حصر الوحش في جانب البر الواسع ثم

١ - وذلك أمر قد اطرد لكل المتبعين من العرب ، وهم : مسيلمة ، والأسود العنسي ، وطلحة ، وسجاح ، وسذكر طرقا من أخبارهم بعد ، وقد روي أن طلحة النمرى جاء اليحامة فقال : أين مسيلمة ؟ قالوا : مه ، رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ! فلما جاءه قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم ، قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن ، قال : أفى نور أو فى ظلمة ؟ قال : فى ظلمة . قال طلحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ريعة أحب إلينا من صادق مضر ؟

ولما توفى رسول الله ﷺ وكان طلحة قد تنبأ واستطار أمره فى بعض قبائل من العرب ، وكان بين غطفان وأسد حلف فى الجاهلية ، قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال : إني مجدّد الحلف الذى بيننا فى القديم ومتابع طلحة ، والله لأن تتبع نبيّا من الحليفين أحب إلينا من أن تتبع نبيّا من قريش ! فتأمل .

٢ - العانة : الجماعة من البحر الوحشية .

تغيب وتسفى الريح على آثارها وسنعدّ لك عدداً ، لتصدر فى هذه الدعوى عن روية ، وتحكم فى تاريخ المعارضة عن بينة ، وتعلم القدر الذى بلغوه أو قيل أنهم بلغوه ، فإن حصر ذلك وبيانهِ على جهته يشبه أن يكون بعض ما يشهد به التاريخ من إعجاز القرآن ، وإن الحق ليجمع عليه الناس كافة ثم يكابر فيه الواحد والاثنان والنفر والرهط ، فتكون مكابرتهم فيه وجهاً من الوجوه التى يثبت بها ويغلب :

١ - فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذاب ، تنبأ باليمامة فى بنى حنيفة على عهد رسول الله ﷺ بعد أن وفد عليه وأسلم ، كان يصانع كل انسان ويتألفه ، ولا يالى أن يطلع أحد منه على قبيح ، لأنه إنما يتخذ النبوة سبيلاً إلى الملك ، حتى عرض على رسول الله ﷺ وآله وسلم أن يشركه فى الأمر أو يجعله له من بعده ، وكتب إليه فى سنة عشر للهجرة : « أما بعد : فإننى قد شورك فى الأرض معك ، وإنما لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، لكن قريشا قوم يعتدون ... ١ » (١) .

وقد زعم مسيلمة أن له قرآناً نزل عليه من السماء ويأتيه به ملك يسمى رحمن .. بيد أن قرآنه إنما كان فصولاً وجمالاً ، بعضها مما يرسله ، وبعضها مما يترسل به فى أمر إن عرض له ، وحادثة إن اتفقت ، ورأى إذا شئ فيه وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن فى تراكيبه ، ويجنح فى أكثرها إلى سجع الكهان ، لأنه كان يحسب النبوة ضرباً من الكهانة ، فيسجع كما يسجعون ، وقد مضى العرب على أن يسمعوا للكهان ويطيعوا ، ووقر ذلك فى أنفسهم واستناموا إليه ، ولم

١ - الرافى : إعجاز القرآن ، ص ١٣٦ .

يجدوا كلام الكهان إلا سجعاً^(١) فكانت هذه بعض ما استدرجهم به
مسيلمة وتأتى إلى أنفسهم منها^(٢) .

ومن قرآته الذى زعمه قوله - أخزاه الله - : والمبذرات زرعاً ،
والحاصصات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات
عجنناً ، والخابزات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً .
لقد فضلتهم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ويفكم فامنعوه ،
والمعتر فأووه والباغى فثاؤوه ...

وقوله : والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ،
واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم
لاتمجمعون^(٣) .

وقوله : الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ،
وخرطوم طويل ...

وقال الجاحظ فى الحيوان عند القول فى الضفدع : ولا أدرى ما
هيج مسيلمة على ذكرها ، ولم ساء رأيها حتى جعل بزعمه فيها
فيما نزل عليه من قرآته يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ماتنقين ،

١ - لذلك سبب فلسفى يرجع إلى رغبة الكهان فى استهواء من يستمع إليهم ..

٢ - وما خفى هذا الأمر عن بلغاء العرب وحكمائهم . وأنه استعانة على النفس الضعيفة بأقوى
مافيهما ، وأنه كسائر ما يأتيه الرجل . نمويه للصدق وتصنع للحق فيه ، وقد قيل إن
الأحنف بن قيس أتى مسيلمة مع عمه ، فلما خرجا من عنده قال له الأحنف : كيف رأيته
؟ قال : ليس بمتنبئ صادق ولا بكذاب حاذق ...

٣ - المذق : مزج اللبن بالماء ، والمجع : اللبن يشرب على التمر ، أو تمر يمعن باللبن ، ولعمر
الله ماتندرى أكان هذا القرآن ينزل على قلب مسيلمة أو على معدته أو كان بين قوم
جياح فتخيره أن يسيل لعابهم ...

نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين .. (١) .

قال الرافعى :

وكل كلامه على هذا النمط واه سخيـف لا ينهض ولا يتماسك ، بل هو مضطرب النـسج مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه ، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى ، ولا من الجهل بمعانى الكلام وسوء البصر بمواضعه ولكن لذلك سبباً نحن ذاكره متى انتهى بنا الكلام إلى موضعه الذى هو أملك به .

٢ - ومنهم عبهلة بن كعب الذى يقال له الأسود العنسى ، يلقب ذا الخمار لأنه كان يقول : يأتينى ذو خمار ، وكان رجلاً فصيحاً معروفاً بالكهانة والسجع والخطابة والشعر والنسب ؛ وقد تنبأ على عهد النبى ﷺ وخرج باليمن ، ولا يذكرون له قرأناً غير أنه كان يزعم أن الوحي ينزل عليه ، وكان إذا ذهب مذهب التنبؤ أكب ثم رفع رأسه وقال : يقول لى كيت وكيت ، يعنى شيطانه ، وهذا الأسود كان جباراً ، وقتل قبل وفاة رسول الله ﷺ بيوم وليلة .

٣ - وطليحة بن خويلد الأسدى ، وكان من أشجع العرب ، بعد ألف فارس ، قدم على النبى ﷺ فى وفد أسد بن خزيمة سنة تسع فأسلموا ثم لما رجعوا تنبأ طليحة ، وعظم أمره بعد أن توفى رسول الله ﷺ . وكان يزعم أن ذا النون يأتيه بالوحي - وقيل بل يزعمه جبريل - ولكنه لم يدع لنفسه قرأناً : لأن قومه من الفصحاء ، ولم يتابعوه إلا

عصبية وطلباً لأمر بحسبونه كائناً فى العرب من غلبة بعضهم على جماعتهم ، وإنما كانت كلمات يزعم أنها أنزلت عليه ، ولم نظفر منها بغير هذه الكلمة ، رأيناها فى معجم البلدان لياقوت ، وهى قوله : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدياركم شيئاً ، فاذكروا الله قياماً (١) فإن الرغبة فوق الصريح (٢) .

وقد بعث أبو بكر - رضى الله عنه - خالد بن الوليد لقتاله وكان مع طليحة عيينة ابن حصن فى سبعمائة من بنى فزارة . فلما التقى الجمعان تزل طليحة فى كساء له ينتظر بزعمه الوحى وطال ذلك منه ، وألح المسلمون على أصحابه بالسيف ، فقال عيينة : هل أتاك بعد ؟ قال طليحة من تحت الكساء : لا والله ما جاء بعد ! فأعاد إليه مرتين ، كل ذلك يقول : لا . فقال عيينة : لقد تركك أحوج ما كنت إليه ! (٣) .

فقال طليحة : قاتلوا عن أحسابكم ، فأما دين فلا دين (٤) اثم

١ - يريد بذلك هيئة الصلاة من الركوع والسجود ، فكانت الصلاة فى شرعه قياماً ، وما من متبىء فى العرب أن يحىء بشيء مبتدئاً إلا أن يشبه بالنبي ﷺ ويزيد وينقص فيما جاء ، وتلك دلائل التزيير وعلاماته فترى لو كان هذا الأمر إنسانياً وذكاه وصنعة ، أفلم يكن فى جزيرة العرب كلها من أقصاها إلى أقصاها رجل واحد يبلغ شيئاً من ذلك الذكاء وتلك الصنعة ، فيأتى بشيء أو يصنع شيئاً لو يكون هو على الأقل فى هذا الأمر شيئاً مذكوراً .

٢ - الرغبة ما فرق اللين ، والكلمة مثل جاء فى العبارة خشوًا .

٣ - راجع : الرافضى ، إعجاز القرآن ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

٤ - هذه رواية ابن الأثير فى كتابه (أسد الغابة) وفى بعض المجموع من كتب الأدب أن عيينة قال : بئاً لك آخر الدهر ، ثم جلده جلدة جاش منها ، وقال : قبح الله هذا ومن تبعه ، فجلس طليحة ، فقال عيينة : ما قيل لك ؟ قال : إن لك رضى كرحاء وأمرًا لاتساءه ! فقال عيينة : قل علم الله أن لك أمرًا لاتساءه ، يا بنى فزارة هذا كذذب ، ما يورك لنا وله فيما يطلب .

وفى تاريخ الطبرى رواية أخرى تشبه هذه ، وفى معجم ياقوت أن عيينة قال له : هل جاءك ذو النون بشيء ؟ قال : نعم . قد جاءنى وقال لى : إن لك يومًا ستلقاه ، ليس لك أوله ولكن آخره رضى كرحاء ، وحديثًا لاتساءه .. قلنا : فانتظر أى هذين تراه ... ! (إعجاز القرآن للرافضى ص ١٣٩) .

انهزم ولحق بنواحي الشام . أسلم بعد ذلك ، وكان له في واقعة القادسية بلاء حسن .

٤ - وسجاح بنت الحارث بن سويد التميمية . وكانت في بني تغلب (وهم أخوالها) راسخة في النصرانية ، وقد علمت من علمهم وتنبأت فيهم بعد وفاة رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر ، فاستجاب لها بعضهم وترك التنصر ومالها جماعة من رؤساء القبائل ، وكانت تقول لهم : إنما أنا امرأة من بني يربوع ، وإن كان ملك فالملك ملككم . وقد خرجت بهم تريد غزو أبي بكر رضي الله عنه ، وممرت تقاتل بعض القبائل وتوادع بعضها ، وكان أمر مسيلمة الكذاب قد غلظ واشتدت شوكة أهل اليمامة ، فهدت له بجمعها ؛ وخافها مسيلمة ، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوجها . قال : « لياكل بقومه وقومها العرب » فأجابت ، وانصرفت إلى قومها ؛ فقالوا : ما عندك ؟ قالت : كان على الحق فاتبعته فتزوجته ^(١) . ولم تدع قرآنا ، وإنما كانت تزعم أنه يوحى إليها بما تأمر وتسجع في ذلك سجعا ، كقولها حين أرادت مسيلمة : عليكم باليمامة ، ودفوا ذيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة ^(٢) .

١ - روى الطبري أن قومها قالوا : فهل أصدقك شيئا ؟ قالت : لا . قالوا : ارجعي إليه ففحيح بمثلك أن ترجعي بغير صدق ، فرجعت فقالت له : أصدقني صدقا . قال : من مؤذلك ؟ قالت : شبت بن ربيع الرياحي . قال : على به ! فجاء ، وقال : ناد في أصحابك : إن مسيلمة بن حبيب رسول الله .. وقد وضع عنكم صلاتين مما أناكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . وذكر الكلبي أن مشيخة بني تميم حدثوه أن عامة بني تميم بالرميل لا يصلونهما .

وفي رواية الأغاني أنه - أخزاه الله - وضع عنهم صلاة العصر وحدها ، وأن عامة بني تميم لا يصلونها ويقولون : هذا حق لنا ومهر كريمة منا لا نرده .. فإن صححت هذه الكلمة فليس أبلغ منها في الكشف عن معنى العصبية التي أومأنا إليها في هذا الفصل وقتلنا إتها الأصل في مشايعة هؤلاء المتنبيين .

٢ - راجع الرافعي ؛ إعجاز القرآن ، ص ١٣٩

٥ - وشاعر الإسلام أبو الطيب المتنبي المتوفى قتيلاً سنة ٣٥٤ فقد ادعى النبوة في حدثان أمره ، وكان ذلك في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، وكان يمزق على الناس بأشياء وصف المعرى بعضها في رسالة الغفران ، وقيل أنه تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه يحكمون منه سوراً كثيرة ، قال على بن حامد :

نسخت واحدة منها فضاعت مني وبقي في حفطي من أولها :
والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ،
إمض علي سنتك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ؛ فإن الله قانع بك
زيغ من أحد في دينه ، وضل عن سبيله .

ولم يكن المتنبي كاتباً ، ولا بصيراً بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربي قح من فصحاء البادية ، وإن كان في حفظ اللغة ما هو ؛ فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذي نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة لأنه لو أراد في معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه ؛ وما المتنبي بأفصح عربية من العنسي ولا مسيلمة ، وقد كان في قوم أجلاف من أهل البادية ، اجتمعت لهم رخاوة الطباع ، واضطراب الألسنة ، فلا تعرفهم من صميم الفصحاء بطبيعة أرضهم ، ولا تعرفهم في زمن الفصحاة الخالصة ، لأنهم في القرن الرابع ، وإذا كانت حماقات مسيلمة قد جازت على أهل الإمامة والقرآن لم يزل غصاً طرياً ، ونور الوحي مشرق على الأرض بعد ، فكيف بالمتنبي في بادية السماوة وقوم من بني كلب ! وهل عرف الناس نبياً بغير وحي ولا قرآن ؟

٦ - وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، فقد زعم بعضهم أنه

عارض القرآن بكتاب سماه (الفصول والغايات ، فى مجارة السور والآيات) وأنه قيل له : ما هذا إلا جيد ، غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن ! فقال : حتى تصقله الألسن فى المحارب أربعمئة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون .

وقيل : إن من كتابه هذا قوله : « أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، بين الشرط مطلع سهيل ، إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل ؛ تعدّ مدارج السيل ؛ وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما إخالك بناج » (١) .

ولكن الرافعى استبعد أن يكون أبو العلاء وقع منه ذلك ، والحقيقة أن أبا العلاء برىء من هذه التهمة الشنعاء فهى فرية عليه أراد به عذو حاذق (٢) .

وربما كانت طريقة التأليف وصوغ الفقرات والعبارات التى سلكها المعرى فى كتابه تدعو القارئ إلى الظن بأنه يعارض آيات القرآن الكريم ، لأن الجمل لها نهايات مسجوعة على طريقة فواصل الآيات فهو يقول مثلاً فى الفقرة الثانية من أول الكتاب :

« أحلفُ بسيف هبار (٣) ، وفرس ضبار (٤) ، يدأب فى طاعة

١ - الرافعى ؛ إصجاز القرآن ، ص ١٤٥ .

٢ - لأبى العلاء كتاب (الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواظع) بتحقيق محمود حسن الزناتى الذى قال فى مقدمة الكتاب : « ... أما القول بأنه قصد به مجارة القرآن الكريم أو معارضته فذلك من قول حساده ... » والكتاب مطبوع فى مصر ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ .

٣ - هبار : قاطع .

٤ - الضبار : الذى إذا وثب وقعت يده مجتمعتين

الجبار ، وبركة غيث مدرار ، ترك البسيطة حسنة الجبار ^(١) ، لقد خاب مضيق الليل والنهار ، أصلح قلبك بالأذكار ، صلاح النخلة بالإبار ، لو كشف ما تحت الأحجار ، فنظرت إلى الصديق المختار ، أكبرت وأنزل به كل الإكبار ، نحن من الزمن في خبار ^(٢) ، كم فى نفسك من اعتبار ، ألا تسمع قديمة الأخبار ، أين ولد يعرب ونزار ، مابقى لهم من إصار ، لا وخالق النار ، مايرد الموت بالإباء .

و « يحكى أن الكندى الفيلسوف قال له أصحابه : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكت ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن حكمته فى سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا فى مجلدات ^(٣) . » . يعنى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم مايريد » (المائدة ١) .

« ولقد كان أهل الفصاحة من العرب يفهمون القرآن ، ويعلمون مراميه فهم أهل اللغة وهم أدرى من غيرهم بتصاريف الكلام العربى ومعرفة معانيه .

١ - الجبار : الأثر والهيئة .

٢ - خبار : أرض سهلة فيها جحر قار وبرابيع توصف بصعوبة المشى فيها ومن كلامهم القديم : من ملك الخبار لم يأمن العشار . (انظر : «الفصول والغايات» ، لأبى العلاء المعرى ، ص ١٢ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧) .

٣ - الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ١/٣٣١ ، ٣٤٢/١ .

قال الأصمعي : قرأت يوماً هذه الآية ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله .. ﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت : والله غفور رحيم ، سهواً فقال الأعرابي : كلام من هذا ؟ فقلت : كلام الله ، قال : ليس هذا بكلام الله ، أعد .

فأعدت وتبهرت فقلت ﴿ ... والله عزيز حكيم ﴾ فقال الأعرابي : نعم هذا كلام الله ، فقلت : أنقرأ القرآن ؟ قال : لا ، قلت : فمن أين علمت أنني أخطأت ؟ قال الأعرابي : يا هذا ، عزّ فحكمم ففقطّع ، ولو غفرّ ودرّجهم لما قطع ^(١) .

ومعجزة القرآن تكمن في أنه كلام ، والكلام سر الخلق لا يعلمه إلا الله وحده الذي ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (مريم ٣٥) ، فالله خلق الأكوان بكلمة ، وخلق آدم بكلمة وخلق عيسى بكلمة ، فالكلام أشرف ما في الوجود ، وقد اختار الله سبحانه وتعالى الكلام العربي لقرآنه فقال عز من قائل : ﴿ وكذلك جعلناه قرآناً عربياً لتذركم القرى ومن حولها وتذكروا يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (الشورى آية ٧) .

القول بالصرّفة

اغتر بقول الكفار ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا .. ﴾ بعض جماعات المعتزلة التي ظهرت في القرن الثالث الهجري ، حين اتسعت دائرة البحوث في القرآن الكريم واحتدمت المعارك ، وكثرت الخلافات المذهبية ، وغنف الجدل حول الآراء الكلامية ، وكان إعجاز القرآن أحد

١ - الصابوني ، صفوة التفسير ، ج ٣٣١/١ ، ٣٤٢/١ .

الميادين الرحبية التي تبارت فيها الفحول ، فزعم قوم من العقلانيين أن فصحاء العرب كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك .

وربما كان أول من قال بأن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن هو أبو موسى المردار المعتزلي وكان يقال له : راهب المعتزلة وهو الذى بالغ فى القول بخلق القرآن ، وهو تلميذ بشر بن المعتز . فقد ورد فى ترجمة فرقة المردارية وهم أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى ، الملقب بالمردار (ت ٢٢٦) أنه انفرد بمسائل منها :

– قوله فى القرآن : إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة – وأن المردار هو الذى بالغ فى القول بخلق القرآن ^(١) .

وهناك أيضاً بعض من زعم هذا الزعم من فرقة الأشعرية ، كما جاء فى ترجمة الشهرستاني لفرقة الأشعرية المنسوبة إلى أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت ٣٢٤) ، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، حيث قال الشهرستاني : « والقرآن عنده – أى الأشعرى – معجزة من حيث البلاغة والنظم والفصاحة إذ خبير العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة . ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى وهو المنع من المعارضة، ومن جهة الإخبار عن الغيب . » ^(٢)

١ – الشهرستاني ، الملل والنحل ، بتحقيق الاستاذ / عبدالعزيز محمد الوكيل ، ج ٦٩/١ ، طبعة مؤسسة الطبى ، القاهرة .

٢ – الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١٠٣/١

أول من قال بالصرفَة :

ويرى بعض المحدثين أن أول من قال بالصرفَة هو أبو اسحاق إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١) الرأس البارز في المعتزلة وشيخها (١) واستشهد بقول الشهرستاني في كتاب الملل والنحل حيث يقول فيه : « - قوله - أي النظام - في إعجاز القرآن إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً .. » (٢) .

ولاشك أن النظام في هذا الادعاء مخطيء ، لأن الله سبحانه وتعالى تحداهم بالآيات بعشر سور منه ففشلوا ثم تحداهم بالآيات بسورة واحدة ففشلوا ولم يستطيعوا ، ولو استطاعوا لما وهنوا في مضاهاته ولو بالشبه ، والنظام نفسه الذي جاء بهذه الفرية : أسدّت عليه منافذ القول ، وطمست أمامه سبل البلاغة فلم يقل قولاً ولم يذهب مذهباً ؟ وكيف ؟ وقد صال وجال ، وحاجّ وجادل بأسلوب عربي مبين رصين ، وكيف ؟ (وهو يرى ويسمع في مجالس العلماء المتكلمين والشعراء في عصره - من آيات البلاغة والبيان ما حفظ التاريخ الكثير منه بين أيدينا ، فأين كانت الصرفَة وكيف لم تمسك بهذه الألسنة أن تصاول وتقاول ؟) (٣) .

وكل من قال بالصرفَة بهذا المعنى كان كأنه لم يدرك معنى المعجزة ،

١ - عبد الكريم الخطيب ، الإعجاز في دراسات السابقين ، ص ٣٦٤ .

٢ - الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٧ ، طبعة مؤسسة الحلبي .

٣ - عبد الكريم الخطيب ، الإعجاز في دراسات السابقين ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

ذلك لأن القرآن في حد ذاته معجزة ، والمعجزة لا يتأتى لبشر مهما كان أن يأتى بمثلها أو ببعضها ، وقد ضربنا لذلك مثلاً عصا موسى هل كان من السحرة من يستطيع أن يحول العصا إلى حية تسعى ؟ ، لقد كان هذا السعى سعيًا حقيقيًا لأن الحية حية حقيقية لها روح ، فلما أيقن السحرة أن العصا تحولت في الحقيقة حية غير حبالهم التي يزيفون للناس فيها سجدوا لله لأنهم أعلم الناس بالسحر ، وعصا موسى ليست بسحر لأن فيها الروح ويستحيل عليهم أن يجعلوا حبالهم مهما أوتوا من قوة السحر تسعى بروح لأن الروح من أمر الرب سبحانه وتعالى ، وهكذا القرآن في إعجازه ، نحن نصف الإعجاز فقط ولا ندري كله ولا يمكن لبشر أن يأتى بمثله أو ببعضه فيستحيل على أهل اللغة والفصاحة من العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن لأنه معجزة ربانية والمعجزة شيء خارق للعادة ومن هنا يسقط كلام من قال بأن العرب كان باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك ، كما لا يستطيع مدع أن يدعى أن سحرة موسى كان باستطاعتهم أن يأتوا بحية مثل حية موسى ولكن الله صرفهم عن ذلك ، وكذلك لا يستطيع مدع أن يدعى أن علماء الطب على عهد عيسى كان باستطاعتهم أن يحيوا الموتى أو يخلقوا من الطين طيرًا يطير في السماء أن الله صرف قلوبهم عن ذلك (١) .

وعلى فرض أننا جارينا هؤلاء الذين قالوا بالصرقة في رأيهم بأن هناك صرقة من الله لقلوب العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل القرآن فإن هذا

١ - د . كمال الدين عبدالغنى المرسى ، مراعاة النظر في كلام الله العلى القدير ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ١٨١ .

فى حد ذاته معجزة من الله تعالى القادر على صرف قلوبهم وألستهم
 عن تقليد آيات القرآن وعن المجيء بمثلها ، فالصرف يبين لنا قدرة الله
 سبحانه وتعالى على صرف قلوب الفصحاء والبلغاء بمعنى إشعارهم
 بالمعجز تجاه القرآن على أن يأتوا بمثله كعجز سحرة فرعون عن الإتيان
 بمعجزة موسى فى العصا وفى غيرها وعجز الأطباء على عهد عيسى عن
 إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لأن كل ذلك إنما يحدث بإذن الله
 ، وإذن الله لم يقع للفصحاء من العرب لمحاكاة القرآن والإتيان بمثله أو
 بمثل سورة منه ، فالصرف بهذا المعنى فى حد ذاته من الإعجاز ولذلك
 لا يجوز لنا أن نصف القائلين بالصرف بأنهم كفار لأنهم اعتقدوا أن
 فصحاء العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن ولكن الله صرفهم . فكان
 المعنى أن العرب فصحاء بلغاء ولكنهم لا يستطيعون بل يعجزون وفى
 العجز إظهار لمقدرة الله سبحانه وتعالى واعتراف بأن القدرة له وحده (١) .

١ - د . كمال الدين عبدالغنى المرسى ، مراعاة النظر ، ص ١٨٢ .

القرآن .. المعجزة الخالدة *

المعجزة أمر خارق للمادة يظهره الله على يد النبي تأييداً لدعوته ، ومعجزات موسى وعيسى قد انتهت بموتهما ، أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهي باقية بين أيدينا وهي القرآن ، تركه بأمر ربه ليكون شاهداً على الناس حتى قيام الساعة ، ولتكون أمته بالقرآن شاهداً على الأمم من بعده ، ونحن إذ تعرضنا لدراسة وجوه الإعجاز في القرآن فإنما ندرس مظاهر المعجزة لا حقيقة الإعجاز لأن حقيقته يعلمها الله وحده .

إن القرآن في بديع رصفه ونظمه وأحكامه وانسجام كلامه كالوجود المنظم الذي تقع عليه أعيننا ونهتدى إليه بعقولنا فبديع إحكامه كبديع إحكام النظام الذي يشمل الوجود وهو محفوظ من لدن العلي الخبير كما السماء محفوظة من أن تقع على الأرض والتقديم والتأخير والترتيب العجيب بين ألفاظه إنما هو مثل التقديم والتأخير والترتيب العجيب الموجود بين المخلوقات ، فلا دخل فيه لبشر كما لا دخل لبشر في ترتيب نظام الكون ، لذلك تكفل الله بحفظه كما تكفل بحفظ القانون الذي يحكم خلق السموات والأرض ، وجعل الله فيه من الغيوب ما استأثر هو سبحانه بها كما جعل في الوجود حوالياً من الغيوب ما استأثر هو بها فنحن نقرأ القرآن وبه من الآيات ما لا يستطيع بشر أن يفك رموزها مهما كان قدر علمه كالحروف المقطعة أوائل السور ، كذلك نحن نقرأ الوجود حوالياً لكننا نعجز عن الوقوف على حقيقة بعض

* د . كمال الدين عبدالغنى المرسى ، مراعاة النظر ، ص ١٣٦ وما بعدها .

الأشياء كالانتران بين نسبة الأكسجين إلى بقية الغازات فى الهواء الجوى أو تصريف الرياح وما إلى ذلك من الأمور التى استأثر الله بعلمها .

وكما يتفق لنا أن الوجود الذى نحياه لا يتفاوت ولا يتباين وأنه يسير بنظام دقيق لا يتغير، كنظام الشمس التى تشرق فى الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر له منازل لا يخطئها ولا يتعدها ، ونظام الأجرام السماوية الدقيق الذى لا يختلف ولا يختل بحيث كل ذلك تطمئن إليه النفس البشرية وترتاح له وتعتمده ، مجد القرآن العظيم أيضا لا يتفاوت فى درجته الفنية وأنه يسير بنظام دقيق لا يختلف ولا يختل ، ومراد القول أن الوجود إنما يمثل بكل مكوناته وحدة واحدة تقبلها النفس البشرية والعقل الإنسانى وترتاح إليه وترى فيها إعجازا وتسليما وأن كل شئ فى الوجود موضوع لحكم بالغة لا يمكن لبشر أن يتدخل فيها أو يعدل عليها بحيث لم نسمع مثلا فى الوجود أحدا يقول لو أن سلسلة جبال الألب كانت مكان سلسلة جبال أطلس لكان أفضل أو أن السماء منظرها يكون أروع لو كانت مستطيلة .. بل إن هناك تسليما بروعة الوجود وبديع نظامه وعظيم إحكامه ودقيق صنعه ، كذلك فالقرآن العظيم يمثل وحدة واحدة وأن كل آية فيه موضوعة فى مكانها لحكمة بالغة لا يمكن لبشر أن يتدخل فيها أو يعدل عليها وأن هذا الانسجام بين الآيات ومواضعها والألفاظ وترتيبها هذا الذى يصنع الروعة والإعجاز .

قلنا إن هناك تسليما من المرء بالنسبة للوجود حواليه وأن هناك إعجازا فى الصنعة التى هى أصلا صنعة الله عز وجل والتى مهما حاول الإنسان تقليدها قلن يصل إليها ، ولنضرب مثلا لذلك الدرة الطبيعية الموجودة فى الطبيعة والجوهره التى يصنعها الإنسان فالأولى باهظة الثمن

لبهائها وأصالتها وجودتها وروعتها بحيث إن وضعت بين الالهيّة
الصناعية تميزت عنها وفاققتها جمالا وزادتها بهاء فتَهفُو إليها النفوس
وتستمتع بها الأنظار ، كذلك الكلمة من القرآن إذا وضعت بين سائر
الكلام فإنها تميز عنه بالرونق والفصاحة وتزيده بهاء فتَهفُو إليها النفوس
وتستمتع بها الأسماع ، وتشوقها الآذان ، أليست هي الصنعة نفسها
التي صنعت الدرة الطبيعية ونفس القدرة التي أعطتها تلك الهيئة وذلك
الإعجاز ؟ .

كذلك الإعجاز في القرآن الكريم فهو صنعة الخبير الذي أتقن كل
شيء صنعه ، إن خبراء صناعة الجواهر حاولوا وأجهدوا أنفسهم كل
الجهد لتقليد الدرة الطبيعية ولكن لم يصلوا في جوهرتهم الصناعية إلى
ما تتمتع به الدرة الطبيعية التي خلقها الله من صفات على الرغم من
أنهم سلكوا في سبيلهم غاية علومهم وعلموا كيف ينتهون إلى صناعة
جوهرتهم وتفتنوا في ذلك غاية التفتن كما نراهم اليوم يضاهئون بالورد
الصناعي الورد الطبيعي بحيث يخيل إلى الإنسان من غريب صناعتهم
للوهلة الأولى أن ما صنعه وردا طبيعيا ولكن ما أن يلمسه ويتفحصه يقف
على حقيقة الأمر ، ويتبين له أن الأمر مجرد الشكل فقط فصناعتهم
شكليّة إذا قيسَت إلى الأشياء المخلوقة وهناك فرق عظيم بالطبع بين
الصنعة الالهية والصنعة الشكليّة الإنسانية ، ويظهر عجز الإنسان تماما
عن أن يخلق مثل خلق الله أو يصنع كصنعه عز وجل ، وهنا يكمن
معنى الإعجاز فالإعجاز هو سر الصنعة الإلهية ولن يصل إليه إنسان ، إذ
هو من الأسرار الإلهية ، والعاجز عن معرفة نفسه عاجز بالطبع عن معرفة
غيره ، ويظهر لنا ذلك واضحا عندما نستعرض معا معجزة موسى عليه

السلام حين دعا فرعون السحرة ليتحدى بهم نبي الله موسى عليه السلام وكان موقناً بأنهم هم الغالبون لأنه ظن أن ما جاء به موسى مجرد السحر، فلما ألقى السحرة عصيهم خيل إلى موسى وإلى الأشهاد من سحرهم أنها تسمى فلما ألقى موسى عصاه التي تحولت إلى حية حقيقية لها روح وتلتهم حبالهم في جوفها تبين للسحرة مدى كذبهم وضعف حجتهم، ولذلك خروا ساجدين اعترافاً منهم بعدما تبين لهم الحق وأسلموا لموسى وآمنوا ولم يأبهوا لتهديدات فرعون ولكن غرور الفرعون دعاه إلى أن يلصق بهم التهم ويقول عن موسى بأنه كبيرهم الذي علمهم السحر لينفذ ماء وجهه أمام الأشهاد بعدما رأى الحية تلتهم عصيهم وحبالهم فلا تبقى منها شيئاً ، وكان من الممكن للحية أن تلدغ فرعون نفسه أو تناله بسوء ولكن الله لم يأمر بذلك ، ثم إذا بموسى عليه السلام يمسك بها فتعود سيرتها الأولى .

إن الذي جعل السحرة يخرون سجداً هو الإعجاز ، إنه سر الصنعة الإلهية ، وهؤلاء قوم قد اشتهروا بالسحر فلما رأوا موسى يصل فيها إلى حد الإعجاز تبين لهم أنه ليس من عنده لأنه هو نفسه يجهل السحر ولم يمارسه من قبل ولم يدع أحد منهم ذلك برغم افتراء فرعون على موسى ، فامية موسى بالسحر هي كامية محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذي أنزل عليه فيظهر واضحاً من هذا أن محمداً لم يأت به من عنده ، ولم يعلمه أحداً من الناس كما ادعى عليه قومه وألصقوا به التهم من أنه أي القرآن أساطير الأولين فهي تملأ عليه بكرة وعشياً ؛ ولم يسبق لمحمد صلى الله عليه وسلم أن تعلم على عالم من علمائهم وإلا كانوا سارعوا بذكره ؛ ولما عجزوا تماماً عن الإتيان بمثل ما أوتى أو تخديه

بها يصفاه رموه بالسحر ، تماماً كما رمى فرعون موسى بالسحر لأنه
أيقن عجزه وعجز سحرته عن أن يأتوا بمثل ما أتى موسى .

وصحيح أن المائل أمام الناس أن موسى عليه السلام يمسك بالعصا
وهي تتحول إلى حية تسمى أو يثقب بها البحر أو يضرب بها الحجر فيتفجر
منه اثنتا عشرة عينا ولكنها هي العصا نفسها التي يهش بها على غنمه ..
نفهى نفي الحقيقة عصا عادية ولكن شاء الله لها أن تكون معجزة له لأن
المعجزة دليل النبوة لكي يصدق الناس أن هذا الرجل اختاره الله ليكون
رسولا إلى قومه ويبلغهم رسالات ربه لاسيما إذا كان هؤلاء القوم
عقوبتين بصناعة معينة واشتهروا بها كصناعة السحر الذي اشتهر به قوم
موسى عليه السلام أو الطب الذي اشتهر به قوم عيسى عليه السلام ،
وقد جاء عيسى عليه السلام بما لا يستطيعه قومه من إحياء الموتى وإبراء
الأكمه والأبرص وفي هذا إعجاز أيما إعجاز لهم ، وهذا الإعجاز الذي
أتى به عيسى لا دخل له فيه لأنه يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص
بإذن الله وأبلغهم أن هذه الصنعة التي أتى لهم بها هي من عند الله
ليؤمن به من يؤمن عن بينة ويكفر به من يكفر عن بينة ولكن عيسى
وحده لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الصفة من تلقاء نفسه وهو لا يدعيها
لنفسه . لهذا قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ ... وإذ تخلق من الطين
كهيئة الطير بإذني ففتفخ فيها فتكون طيرا بإذني و تبرئ الأكمه
والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك
إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾
... (١١٠ المائدة) وكما هي العادة في شأن الأمم آمن معه من آمن
واتهمه أهل العناد والكفر بأنه ساحر ... كما اتهم فرعون ومن معه

موسى من قبل بالسحر .. وكذلك أيضا نجد كفار قريش يقفون موقف الكفار والمعاندين من قوم موسى وقوم عيسى فيتهمون الرسول الكريم بالسحر لأنهم عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن .. ثم نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يبلغهم أن القرآن هو وحى الله إليه ليبلغهم إياه ليؤمن به من يؤمن عن بينة وليكفر به من يكفر عن بينة ، ويبلغهم أيضا أن القرآن كلام الله لا دخل له فيه فهو يتلوه عليهم بإذن الله وليس من عنده ، ولذلك كان الرسول يصر على ألا يكتبوا عنه شيئا سوى القرآن حتى لا يلتبس الأمر ويختلط حديثه بكلام الله بعد ذلك فكما كان يبلغ موسى قومه بأن ما أتى به هو من عند الله وكما أبلغ عيسى قومه بأن ما أتى به هو من عند الله فالرسول أيضا صلى الله عليه وسلم وعلى النبيين أجمعين بلغ الناس أن القرآن من عند الله أى أنه صنعة الله وما على الرسول إلا البلاغ . وما أن وصلنا إلى هذا الحد فإنه يكون قد تبين لنا أن الإعجاز هو سر الصنعة الإلهية مجده فى كل شىء حولنا فى الوجود فى المجرات وفى الهواء الجوى وفى البحار والأنهار وعموم الخلق .

ويتبين لنا هنا لطيفة أحب أن أذكرها وهى أن الله عز وجل تحدى الملائكة بعلم أودعه آدم ، حيث علمه الأسماء كلها وطلب إلى الملائكة أن يذكروا هذه الأسماء فعجزت الملائكة ، وذكرها لهم آدم عليه السلام فأمرهم الله بالسجود لآدم صاحب معجزة ذكر الأسماء التى طلبها الله عز وجل ، ولهذا سجدوا كلهم أجمعون ، إلا أن هناك من استكبر وأبى أن يسجد كما سجدت الملائكة وهو إبليس اللعين ، فادعى لنفسه الأفضلية على آدم لا من ناحية العلم فهو عاجز تماما عجز الملائكة عن ذكر الأسماء إنما من ناحية الخلق ، قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته

من طين « أى أن عدم الإذعان لم يأت من ناحية المعجزة إنما جاء من ناحية العناد والحسد فقد حسد إبليس آدم عليه السلام لأن الله اصطفاه وأجرى على يديه المعجزة، فمثال الجماعة المؤمنة مثال الملائكة، ومثال الجماعة الكافرة مثال إبليس اللعين .

وإن نحن بحثنا قضية الكفر عند الكفار لوجدنا أن سبب الكفر عندهم إما الاستكبار وإما الحسد ، وهما صفتان يكرههما الرحمن .

ولطيفة أخرى هي أن معجزة آدم معجزة كلامية فقد علمه الله الأسماء كلها وهي شئ لم تنله الملائكة ، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا معجزة كلامية بيانية على خلاف كل المعجزات السابقة عليه .

وبعد فإن أسرار القرآن لا تحصى ، ووجوه إعجازه لا تعد ، ولا يستطيع أن يلم بذلك أحد . فالقرآن معجزة لأنه من صنع الخالق ، وصنعة الخالق لا يدرك كنهها بشر ولا يحيط بها عقل لأنها تخرج عن حدود العقل ، إذ لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من القدرة والبيان أن يأتي بمثل هذا القرآن ، ولا الجان ، لأن الجن أقرت بذلك واعترفت به إذ قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشـد فأما به ولن نشرك بربنا أحدا » (سورة الجن - ٢) فأقرارهم بقولهم قرآنا عجبا ، يفيد بأنه يخرج عن طوقهم وأنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله . فهو معجزة لهم . وهؤلاء النفر من الجن الذين سمعوا القرآن أدركوا الغاية منه وهي هدايته إلى الرشـد فسارعوا إلى الإيمان به وأعلنوا الإذعان من فورهم إلى الوحـدانية . وإن غاية ما قرمى إليه المعجزة هي توحيد الخالق سبحانه وتعالى وتنزيهه عن النقص وعن الشريك .

« خاتمة البحث »

إلى الله تعالى أتوجه بأن يجعل هذا البحث خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كل من أراد أن يتزود من بلاغة الأسلوب القرآني ، لاسيما أن من علوم القرآن معرفة إعجازه ، وفواصل الآي أحد وجوه هذا الإعجاز ، وهي بعض أسرارهِ ودقائقهِ ، ولقد حاولت أن أجمع فيه خلاصة ماتحصل لدى من كلام الذين خاضوا في الكلام في فواصل الآيات القرآنية من السادة العلماء الأقدمين والمحدثين والمهتمين بهذا الشأن ، حتى يسر لي تقديمه في أربعة فصول :

- الفصل الأول بعنوان : بين الفواصل والقوافي والأسجاع .
 - والفصل الثاني بعنوان : الإعجاز البلاغي للفواصل القرآنية .
 - والفصل الثالث بعنوان : الدرس البلاغي للفواصل القرآنية .
 - والفصل الرابع بعنوان : معارضة الفواصل والقول بالصرقة .
- وفيما يلي أهم النتائج التي توصل إليها البحث :

١ - تقديم دراسة مستفيضة تناولت موضوع الفواصل التي هي رءوس الآيات القرآنية متضمنة أبرز ما أثر من الكلام المتأثر في مصنفات عدد من العلماء السابقين واللاحقين والمهتمين بهذا المجال ، لتضيف إلى المكتبة الإسلامية كتابا يفي بهذا الموضوع ويغطي هذا الجانب من علوم القرآن .

٢ - أكد البحث على أن تسمية الفواصل بهذا الاسم مأخوذة من القرآن

نفسه لقوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (هود ١) وقوله عز من قائل : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (فصلت ٣) . فهذا الاسم تختص به رموز الآيات القرآنية ، بينما يسمى غيره من الكلام الذى تتفق عباراته فى اللفظ الأخير بالتمائل والمزاوجة ، بالسجع ، كما تبين أن إطلاق اسم السجع على الفواصل جائز على سبيل المقاربة . وأنه لا يجوز استعمال الفاصلة فى الشعر كما يمتنع استعمال القافية فى القرآن .

٣ - أظهر البحث أنه حتى القرن الثالث للهجرة كان التخرج واضحا من القول بالسجع فى القرآن ، وأن العلماء انقسموا بسبب ذلك إلى فريقين ، فريق يرى المنع وفريق يرى الجواز ، وتم حسم الخلاف بأن القول بالسجع فى القرآن تقرير للفاصلة ، والقول بالفاصلة ليس انكارا للسجع ، وأنه لا مانع من إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل مادام لم يرد نص شرعى يمنع من ذلك .

٤ - أكد البحث على أن من خصائص النظم القرآنى فواصل الآيات التى تجمع إلى حسن النظم وعذوبة اللفظ حسن الدلالة وكثرة الفائدة ، حيث تأتى الفاصلة عاقدة للمعاني ، فهى كالبراعم للنباتات والأكمام للزهر والبصمة للبنان . ومن هنا تكون الفواصل أحد وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

٥ - كشف البحث عن بعض أسرار الإعجاز فى الفواصل وأنها تكمن فى :

المزاوجة ، والتناسب ، والتكرير ، وإحكام الربط الفنى ، ورعاية

الفواصل ، وتحقيق التناغم والإيقاع .

٦ - تقديم منهج علمي لدراسة بلاغة الفواصل من خلال ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : هو المستوى اللغوي (المناسبة اللغوية للفاصلة) .

والمستوى الثاني : هو المستوى الدلالي (مراعاة الفواصل للمعاني) .

والمستوى الثالث : هو المستوى الصوتي (موسيقى الفواصل) .

٧ - دحض شبهة معارضة الفواصل وإظهار الفشل الذريع الذي منى به كل من عارض القرآن وقال كلاما يحاكي فواصله ، كذلك تم دحض شبهة القول بالصرقة ، والرد على من قال بأن العرب كان باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك ، ثم إظهار حقيقة أن القرآن معجزة « خالدة » أبد الدهر .

٨ - تبين للبحث أن الإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) هو أوعى من جمع الكلام في شأن الفواصل وجعل له عنوانا مستقلا في كتابه « الانتقان في علوم القرآن » في النوع التاسع والخمسين من أنواع علوم القرآن . وقد أفاد البحث منه كثيرا في منهج دراسة الفواصل بلاغيا .

والله الموفق .

** تم بحمد الله **

1870-1871

1871-1872

1872-1873

1873-1874

1874-1875

1875-1876

1876-1877

1877-1878

1878-1879

1879-1880

1880-1881

1881-1882

1882-1883

1883-1884

1884-1885

1885-1886

1886-1887

1887-1888

1888-1889

1889-1890

1890-1891

1891-1892

1892-1893

1893-1894

1894-1895

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
* ابن أبى الإصبع المصرى :
- ٢ - بديع القرآن ، تقديم وتحقيق حفى محمد شرف - نشر : نهضة مصر .
* ابن حجر العسقلانى ، أحمد بن على :
- ٣ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي وإخراج محب الدين الخطيب ومراجعة قصى محب الدين الخطيب ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٦ .
* ابن عاصم المفضل ، الضئى :
- ٤ - الفاخر، بتحقيق عبد العليم الطحاوى ، ومحمد على النجار طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب .
* ابن عبد البر القرطبى :
- ٥ - بهجة المجالس وأنس المجالس ، وشخذ الذهن والهاجس ، بتحقيق محمد مرسى - دار الكاتب العربى .
* ابن هشام ، الأنصارى :
- ٦ - السيرة النبوية ، بتحقيق محمد يومى - مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤١٦ - ١٩٩٥ .
* أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى :
- ٧ - إعجاز القرآن - تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

- * أبو الحسن علي بن عيسى الرماني :
- ٨ / - النكت في إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - طبعة دار المعارف بتحقيق د/ محمد زغلول سلام .
- * أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان .
- ٩ - فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ، دار العلوم الإسلامية بالقاهرة ١٤٠٩ ، ١٩٨٩ .
- * أبو عبيد الهروي ، أحمد بن محمد بن محمد :
- ١٠ - كتاب الغريبين ، غريب القرآن والحديث بتحقيق / محمد محمد الطناحي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي . القاهرة : ١٣٩٠ - ١٩٧٠ .
- * أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري :
- ١١ - الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، بتحقيق / محمود حسن زناتي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .
- * أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري :
- ١٢ - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق / علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . ط ٢ - ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .
- * أحمد إبراهيم موسى :
- ١٣ - الصبغ البيدي في اللغة العربية ، نشر دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- * أحمد الحملوي :
- ١٤ - زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع . نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة السابعة ١٣٩١ - ١٩٧١ .

- * د/ بسيوني عبد الفتاح فيّود :
- ١٥ - علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ،
مطبعة السعادة، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ م / ١٤٠٨ هـ .
- * الترمذى ، أبو عيسى محمد بن عيسى :
- ١٦ - الجامع الصحيح ، راجعه محمد عثمان - الناشر محمد عبد
المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
- * تمام حسان :
- ١٧ - البيان فى روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية النص القرآنى طبعة
١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- * التهانوى :
- ١٨ - كشاف اصطلاحات الفنون ، بتحقيق لطفى عبد البديع وترجمة
د. عبد النعيم حسنين - طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة
١٩٧٧ .
- * الحسن بن عثمان بن حسين المفتى :
- ١٩ - خلاصة المعانى - بتحقيق د/ عبد القادر حسين - طبعة دار
الاعتصام ١٩٩٣ م .
- * د/ حنفى محمد شرف :
- ٢٠ - إعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق . إصدار المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية . اللجنة العامة للقرآن والسنة - الكتاب
الرابع . ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- * زهران محمد جبر :
- ٢١ - عروض الشعر الخليلي - المكتبة الأزهرية للتراث ، بالقاهرة .

- * السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين :
- ٢٢ - الإنفاق في علوم القرآن ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم" ، سنة ١٩٧٤ .
- ٢٣ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، بتحقيق محمد أحمد جاد المولى - على محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الفكر للطباعة والنشر .
- * شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري :
- ٢٤ - نهاية الأرب في فنون الأدب - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- * الشهرستاني :
- ٢٥ - الملل والنحل : طبعة مؤسسة الحلبي - القاهرة - بتحقيق الأستاذ/ عبد العزيز محمد الوكيل .
- * شوقي ضيف :
- ٢٦ - العصر الجاهلي ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ .
- * الصابوني ، محمد علي :
- ٢٧ - صفوة التفاسير ، مكتبة الإيمان - المنصورة ١٩٧٧ .
- * ضياء الدين بن الأثير :
- ٢٨ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، بتعليق د/ أحمد الحوفي و د/ بدوي طبانة ، نشر نهضة مصر .
- * طه حسين :
- ٢٩ - من حديث الشعر والنثر ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٥ .

- * د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) :
- ٣٠ - الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية
وبيانية . ط ٢ النشار : دار المعارف سنة ١٩٨٧ .
- * د/ عبد الكريم الخطيب :
- ٣١ - الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة
العربية ومعاييرها . دار الفكر العربي طبعة أولى سنة ١٩٧٤ .
- * عبد المتعال الصعیدی :
- ٣٢ - بنية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، طبع مكتبة الآداب ، الطبعة
السابعة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .
- * د/ فتحي أحمد عامر :
- ٣٣ - فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم - القاهرة
١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة
القرآن والسنة .
- * القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي :
- ٣٤ - الجامع لأحكام القرآن - دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة
الأولى ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م .
- * د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى :
- ٣٥ - مراعاة النظر في كلام الله العليّ القدير - دراسة بلاغية في
إعجاز الأسلوب القرآني ، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع
بالاسكندرية طبعة ١٩٩٧ .
- * محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي :
- ٣٦ - « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » دار الفكر ببيروت
١٤١٥ - ١٩٩٥ .

- * محمد رجاء حنفى عبد المتجلى :
- ٣٧ - الفواصل أحد مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ، مقال ،
بمجلة الوعي الإسلامى ، العدد ٣٨٨ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .
- * أ / محمد عبد العظيم الزرقانى :
- ٣٨ - مناهل العرفان فى علوم القرآن - طبع بمطبعة عيسى البابى
الحنلى وشركاه - القاهرة .
- * د / محمود أحمد نحلة :
- ٣٩ - لغة القرآن الكريم فى جزء عم ، دار النهضة العربية ، بيروت
١٩٨١ م .
- * مطفى صادق الرافعى :
- ٤٠ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . ط ١ دار المنار للطبع والنشر ،
مكتبة فياض للطبع والنشر ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- * يحيى بن حمزة العلوى :
- ٤١ - الطراز - مطبعة المقتطف - طبعة سنة ١٩١٤ .

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

٦ - ٣ المقدمة
١٤ - ٧	الفصل الأول : بين الفواصل والقوافى والأسجاع
٩	- بين الفاصلة والقافية والسجعة .
٩	- تعريف الفاصلة .
١١	- تعريف القافية
١٣	- تعريف السجعة
١٤	- سجع الكهان
١٥	- هل يجوز إطلاق السجع على الفواصل .
١٩	- السجع نمط من أنماط النثر الفنى عند العرب .
٢٢	- أسجاع العرب فى الأنواء .
٢٣	- حديث أم زرع
٢٧	- سجع القوافى « الترصيع » .
٢٩	- سجع الأمثال .
٣١	- حسم الخلاف بين العلماء فى وصف الفواصل
-	بالأسجاع .
٣٢	* رأى الباقلانى .
٣٥	* رأى أبى هلال العسكري .
٣٦	* رأى ابن سنان الخفاجى .
٣٨	* رأى ابن الأثير صاحب المثل السائر .
٣٩	* رأى التنوخى .

٤٠	* رأى اليمنى صاحب الطراز .
٤٠	* جواز اطلاق السجع على الفواصل
٨٥ - ٤٣	الفصل الثانى : الإعجاز البلاغى للفواصل القرآنية .
٤٥	- بلاغة الفواصل .
٥٦	- الفواصل من خصائص النظم القرآنى .
٦١	- الفواصل من ضروب الإعجاز البلاغى فى القرآن .
٦٦	- من أسرار الإعجاز فى الفواصل :
٦٦	١ - المزاجية بين الفواصل .
٧٠	٢ - تناسب الفواصل .
٧٤	٣ - التمهيد للفواصل بألفاظ تمهد لوقوعها .
٧٦	٤ - تكرير الفواصل فى بعض السور .
٧٨	٥ - الربط الفنى فى الفواصل .
٨٠	٦ - رعاية الفواصل .
٨١	٧ - تحقيق التناغم والإيقاع المناسب .
١٩٤ - ٨٧	الفصل الثالث : الدرس البلاغى للفواصل القرآنية :
٨٩	توطئة .
٩١	مستويات الدرس البلاغى للفواصل .
٩٢	أولاً : المستوى اللغوى .
١١١	* رأى للدكتورة بنت الشاطىء .
١٢١	* الرد على رأى الدكتورة بنت الشاطىء فى فهمها
-	للمذهب القراء .
١٢٣	* قول الدكتور تمام حسان فى رعاية الفواصل .

رقم الصفحة

١٢٦	* رأى مخاطبىء للدكتور تمام حسان . يجب تصحيحه
١٢٩	ثانياً : المستوى الدلالي :
١٣٠	أولاً : التمكين .
١٤١	ثانياً : التصدير .
١٤٢	ثالثاً : التوشيح .
١٤٣	رابعاً : الإيقاع .
١٤٤	فصل فى أقسام الفواصل
١٤٥	* التشريع
١٤٦	* الالتزام .
١٤٧	* تنبيهات .
١٤٩	ثالثاً : المستوى الصوتى :
١٤٩	- النظام الصوتى للقرآن .
١٥٣	- الجمال اللغوى للقرآن .
١٥٥	- إعجاز النظم الموسيقى للقرآن .
١٥٨	- موسيقى الفواصل .
١٦٥	- الإيقاع فى فواصل الآيات .
١٦٦	- معنى الإيقاع .
١٧٠	- الإيقاع الصوتى والإيقاع الترتيلى .
١٧١	- الجرس الصوتى للحروف والمقاطع .
١٧١	١- الصوت المتكرر
١٧٥	٢- تكرار أصوات سابقة .
١٧٧	٣- تكرار القالب الصوتى

رقم الصفحة

١٧٩	* جرس المقاطع الصوتية .
١٨٤	* الخروج على رقابة الإيقاع .
١٨٤	١ - كسر الإيقاع .
١٨٦	٢ - التوازي .
١٨٨	٣ - التوازن .
١٩٠	٤ - التطريف .
٢٢٨ - ١٩٥	الفصل الرابع : معارضة الفواصل والقول بالصرقة .
١٩٧	- تحدى القرآن .
٢٠٧	- معارضة الفواصل .
٢١٧	- القول بالصرقة .
٢٢٢	- القرآن المعجزة الخالدة .
٢٢٩	* خانمة البحث .
٢٣٣	* المصادر والمراجع .
٢٣٩	* الفهرس .

* * *

﴿ تم بحمد الله تعالى ﴾